مونوبولي

نذير الزعبي

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مونوبولي

رواية

نذير الزعبي

الكاتب: نذير الزعبي
عنوان الكتاب: مونوبولي
X
تصميم الغلاف: نذير الزعبي
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-93-8
الطبعة الأولى - مايو/ أيّار - 2023
2000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
X

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail. takweenkw
com
takween_publishing TakweenPH
www.takweenkw.com

أغمض عينيك؛ ستُصفع الآن!

وُلد السيد سعيد وهو في التاسعة من عمره، أو هذا ما توصل إليه بعد حيرةٍ مستبدة وتفكير طويل وقد تنبّه إلى فجوةٍ في ذاكرته مقدارها تسعة أعوام بالتمام والكمال، تمتد من اليوم المسجل في شهادة ميلاده إلى ما قبل اللحظة التي تلقَّى فيها أول صفعةٍ في حياته. كانت تلك الصفعة من والدته، أما مناسبتها فكانت عيد ميلاده.

غرفة صغيرة مضاءة بالشموع، تتراءى في أركانها المعتمة أشباح أثاث بسيط وحوائط خضراء شاحبة، توسطتها طاولة طعام خشبية صغيرة، وُضعت عليها كعكة مغطاة بكريمة بيضاء بدت كاللبن الرائب غُرست بتسع شموع. والتفَّ حول الطاولة وقوفًا كلٌّ من سعيد الذي ارتدى بدلةً بنية بربطة عنق صفراء، ووالديه اللذين راحا يغنيان له تمهيدًا للحظة المنشودة، لحظة إطفاء الشموع:

سنة حلوة يا سعيد..

سنة حلوة يا سعيد..

سنة حلوة، سنة حلوة، سنة حلوة يا سعيد!

لم ينفخ الطفل على شموعه المتوهجة، بل ملأ فمه بكرة لعابٍ كبيرة، وبصق على الكعكة.

شهقت الأم، التفت إليها مبتسمًا، فصفعته على وجهه.

تراجع الأب وجلس على الكنبة دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، مكتفيًا بإشعال سيجارة ونظرة احتقارٍ ما كان ليجرؤ على رمي زوجته بها لولا يقينه أنها لن تراها وهو في ذلك الركن المعتم من الغرفة.

ظل الطفل متسمرًا في مكانه، يحدق في لهب الشموع بعينين ذاهلتين، وقد غدت الآن أشدَّ ألقًا من أي وقتٍ مضى. كانت كالقناديل المضيئة في قلب محيطٍ حالك العتمة.

تحركت الأم من جمودها أخيرًا، انحنت بظهرها النحيل فوق الكعكة، وأطفأت الشموع الذابلة بنفخاتٍ مقتضبةٍ وحادة كالشتائم. ثم انسحبت برويَّةٍ إلى غرفتها، وصفقت الباب.

هنا سالت من عين الفتى دمعة وحيدة، أبدية.

منذ ذلك اليوم وصاعدًا، ولسببٍ سيظل مجهولًا بالنسبة إليه، لن تتوانى الأم عن صفعه كلما أغضبها، وكذلك سيفعل زملاؤه في المدرسة ثم في العمل، ومن يلتقيهم من غرباء في الأسواق والمقاهي والطرقات. وكأن البصقة تلك قد جرَّت عليه اللعنات، كما يجلب النفخ على الشموع الحظَّ السعيد.

ستتوالى الصفعات على خديه إذن، وسيظل يستقبلها برحابة صدر، دون أدنى شعور بالإهانة أو الغضب أو حتى الإشفاق على نفسه، بل إنه سيسعد كثيرًا حين يكتشف أن اطراد هذا الأمر قد أكسبه موهبةً فريدة، وهي التنبؤ بوشوك تلقي صفعةٍ جديدة. غير أن الأمر بطبيعة الحال لن يتوقف عند حد الصفع، فكثير من الناس الذين سيقابلهم في حياته ستكون لديهم شهوة الضرب متأججةً حدَّ الشبق، الأمر الذي سيجعل السيد سعيد عرضةً على الدوام لشتى أنواع الضرب المبرح من لكمٍ على الوجه وركل البطن والمؤخرة وكل أعضاء جسده. وهنا فقط، سوف يبكي بحرقةٍ، لكن بكاء التألم وحسب.

إنه عيد ميلادك!

برتابةٍ وهدوء (إن جاز لنا تقمص مشاعره) سارت حياة السيد سعيد إلى أن بلغ الخامسة والأربعين من عمره وفق شهادة الميلاد. لم تبدُ عليه إلى الآن وهو في هذه السن المتقدمة أية علامة من علامات الكبر، فلا تجد في رأسه شعرة شيب واحدة، ولا ترى في وجهه الذي لم يزل مشدودًا ونضرًا أيَّ خطٍّ غائر من الخطوط التي يحفرها الزمن في الوجوه بأناة نحّاتٍ صبور. بل إنه ما يزال يحتفظ في عينيه بذلك البريق الذي تراه عادةً في عيون الأطفال، والذي يدل على اتقاد الدهشة في نفوسهم لكثرة الأشياء التي لم تزل قابلةً للاكتشاف من حولهم. غير أن السيد سعيد، وبسبب بلادة مشاعره، لم يكن لذلك البريق في عينيه علاقة بالدهشة من قريب أو بعيد، إنما هي مجرد تماهٍ آخر من تماهياته الجسدية المتعددة مع حقيقة أن الزمن يأنف من المرور به.

خمسة وأربعون عامًا إذن وفق شهادة ميلاده، أو ستة وثلاثون وفق ذاكرته، هو عدد السنين التي كان عليه أن يحياها كي يبلغ اليوم الذي سيقلب حياته رأسًا على عقب.

رن جرس المنبه عند السادسة صباحًا، فتح عينيه البراقتين فشعر بألم شديد في ساقه اليسرى تذكر على إثره ما وقع له مساء الأمس: كان واقفًا في طابور المخبز الآلي حين أوقع الرجل الواقف وراءه قطعة نقد معدنية من فئة العشرة قروش. داس عليها السيد سعيد دون أن ينتبه، ظن الرجل أنه تعمد فعل ذلك لكي يسرقها، فبادر من فوره بتوجيه رفسةٍ إلى ساقه، أتبعها بثلاثٍ أشد بعد أن أوقعته الأولى أرضًا، قبل أن يتدخل بعض من كانوا في الطابور ويسحبوه من فوق السيد سعيد الذي غالبَ بكاءه بلا جدوى.

رفع الغطاء عن ساقه الموجوعة، تحسسها متألمًا وراح يعاينها بكلتا يديه للتأكد من خلوها من الكسور، وهو أمر كان بارعًا فيه براعة أطباء العظام لكثرة ما زارهم خلال حياته. كانت

مجرد رضوض متفرقة متفاوتة الشدة، وكان أشدها في العضلة التوأمية، لكن دون وجود احتمالات تمزق.

غادر فراشه أخيرًا، ومضى عارجًا إلى الحمام.

اليوم عيد ميلادي! فكر بينما يتناول طعام الإفطار في المطبخ على طاولةٍ صغيرة وُضعت بجانب الثلاجة بمواجهة الحائط حيث اعتاد تناول طعامه كل يوم. لم يكن في مطبخه الصغير أية نافذة، لذا كان عليه أن يختار ما بين الحائط أو الفرن شريكًا له في تناول الطعام، فاختار الحائط من دون تردد إذ لطالما أحس بأن ثمة ما هو مشترك بينهما.

سيرتدي اليوم للعمل بدلةً رسمية بربطة عنق كما اعتاد أن يفعل في عيد ميلاده من كل عام. لقد اشترى واحدةً جديدة هذه المرة، إذ تمزّقت بدلته القديمة في عيد ميلاده السابق على يدي شابين في صالون الحلاقة. لم يكونا شابين في حقيقة الأمر، بل شابًا نزقًا وأخاه الصغير ذا الثلاثة عشر عامًا. كان الأخير جالسًا على كرسي الحلاقة المجاور حين عرض الحلاق على السيد سعيد أن يغسل له شعره بعد أن انتهى من قصه، فهز رأسه موافقًا دونما إبطاء، فمن شأن هذا العرض السخيّ أن يجنبه نزع البدلة للاستحمام وارتداءها من جديد، وهو أمر يثقل على قلب رجل مثله لا يرتدي بدلةً رسمية سوى مرة في العام.

نهض السيد سعيد إذن وساقه الحلاق إلى المغسلة، دعك شعره بالشامبو وغمره بالماء الدافئ ثم ألقى إليه المنشفة وسبقه إلى الكرسي. نهض السيد سعيد ومشى إلى الكرسي بينما يفرك عينيه بالمنشفة محاولًا التخلص من أثر الشامبو الحارق، وحين أحس أنه بلغ كرسيه ألقى بجسده الضئيل فوقه ليصرخ الولد مفزوعًا من تحت مؤخرته القاسية. وهنا هبَّ الشاب النزق من مقاعد الانتظار بعد أن ألقى المجلة من يده وصفعه على قفاه الذي كان لم يزل مبتلًا، فكان لصوت الصفعة وقع السياط المحفز للأدرينالين، وكان للخنوع التام الذي استقبل به السيد سعيد تلك الصفعة أثر فاتح للشهية لدى الشاب فانهال عليه بالضرب بينما اكتفى الحلاقان بحماية المرايا والأدوات من الكسر. أما الولد الصغير فلم يجد بأسًا

في مد يد العون إلى أخيه طالما كان الأمر بهذه السهولة ولا ينطوي على أيٍّ من المخاطر المتوقعة في مشاجرات الكبار.

يومها نجحت خطة السيد سعيد في تجنب خلع البدلة وإعادة ارتدائها، وهو أمر لم يستطع منع نفسه من الشعور بالامتنان للحلاق إزاءه، رغم الألم المبرح الذي كان ينبض في كل جزء من جسده، وبرغم خسارته الأكيدة للبدلة الوحيدة.

تقع شقة السيد سعيد في الطابق الرابع من بناية قديمة بلا مصعدٍ كهربائي، وهي شقة صغيرة تتكون من صالةٍ متوسطة الحجم مفروشة بأثاث بسيط وُضعت في إحدى زواياها طاولة عمل يستخدمها غالبًا للعب المونوبولي، بالإضافة إلى غرفة نوم صغيرة بالكاد اتسعت لسرير حديدي مفرد وخزانة ثياب خشبية بدرفتين، بينما تتوسط أحد جدرانها نافذة تبدو أكبر من الغرفة، وبين الغرفتين مطبخ صغير وحمام أصغر منه.

غادر السيد سعيد منزله وهو يشعر بحرٍّ لا يطاق، فالبدلة الجديدة كان قد اشتراها في تخفيضات نهاية موسم الشتاء رغم علمه بأنه لن يرتديها إلا في عيد ميلاده الذي يصادف ذروة الصيف، آخر شهر تموز. وهي بدلة من الجوخ السميك لم يكن يعنيه فيها غير سعرها المنخفض، بالإضافة إلى لونها البني الذي لا يمكن التنازل عنه في بدلة عيد ميلاده، وكذلك الأمر فيما يتعلق بربطة العنق الصفراء.

نزل الدرج متسنِّدًا إلى الدرابزين الصدئ وقد اشتد الآن ألم ساقه فلم تعد تطيق حمل جسده رغم خفته. كان لديه الكثير من الوقت إلى حين بلوغ الطابق الأرضي قياسًا بالسرعة التي كان يهبط فيها الدرج، وهو وقت كافٍ بلا شك لممارسة طقسه المعتاد بعد كل حادثة ضرب، وهو استرجاع الحادثة في مخيلته بكل تفاصيلها لمرةٍ واحدة، قبل أن يمحوها بشكل نهائي من ذاكرته.

كانت حادثة الأمس عاديةً بالنسبة إليه ولا تحمل بين طياتها أية مفاجأة، بل إنه الآن يستطيع الجزم بأنه وبمجرد وقوف ذلك الرجل وراءه، قد بات على يقين بأنه لن يغادر

الطابور قبل أن يبرحه ضربًا، بل وربما يكون قد تعمد الدوس على نقود الرجل كي يعجل بإنهاء المسألة، فانتظارُ البلاءِ أشدّ وطأةً من وقوعه. غير أن الذي ظل محيرًا بالنسبة إليه هو إصرار الرجل على ضرب ساقه اليسرى دون سواها من أعضاء جسده رغم توفرها جميعًا بين يديه، وكأنه كان يحاول كسر تلك الساق بالذات كي يُخرج ما في جوفها من نقود مسروقة.

عليَّ إيجاد طريقة أجبر فيها الخصم على توزيع ضرباته على أماكن متفرقة من جسدي. فكر بحزم، وقرر أن يزور نادي التنين الكبير أو السمين، لم يعد يذكر اسمه تمامًا، وهو نادٍ لتعليم الفنون القتالية يقع في طريقه إلى العمل، لسؤالهم عن إمكانية التدرب على مثل هذه المهارة.

حين بلغ الطابق الأرضي، كان العرق ينهمر من كل مسام جسده، فأخرج منديلًا من الحقيبة الجلدية المعلقة بكتفه، والتي كانت تضم أيضًا آلةً حاسبة وبضع ملفات وحافظة طعام صغيرة.

مسح العرق عن جبينه مسندًا ظهره إلى الحائط الجانبي لخزانة البريد، ثم أعاد المنديل إلى حقيبته، وراح يتحسس ساقه المصابة وكأنه يواسيها في الظلم الذي وقع عليها.

دخل في هذه الأثناء ساعي البريد متعجلًا، دافعًا أمامه عربةً تحمل صندوقًا جلديًّا كبيرًا أصفر اللون، وتوقف إزاء السيد سعيد دون أن يلقي عليه التحية أو ينظر إليه حتى، وكأنه كائن شفاف لا يُرى. أخرج من الصندوق الجلدي حزمة رسائل، وراح يسحب منها رسالةً تلو الأخرى ويلقيها في الصناديق. كان السيد سعيد يختلس النظر إليه ليرى إن كان من بين تلك الرسائل واحدة له، لكن الرجل أنهى مهمته دون أن يقرب صندوقه. شيء ما جعله يستمر في مراقبة الرجل، ربما كان شعوره بأنه غير مرئي بالنسبة إليه، وهو أمر يحرك في المرء غالبًا غريزة التلصص، حتى عند السيد سعيد الذي لم يشعر يومًا بالفضول تجاه الناس، بل إنه لا يشعر بوجودهم من الأساس إلا إذا تعرض للضرب من أحدهم. إنه يعيش في دماغه البسيط وحيدًا على هذا الكوكب منذ أن غادر منزل والديه قبل سبعة وعشرين

عامًا خلت، وكل من عبروا حياته خلال تلك الأعوام مروا هكذا دون أن يحتلوا أي حيز من ذاكرته، فلم يحفظ وجوههم ولا أسماءهم. حتى زملاؤه في العمل نادرًا ما كان يستطيع تذكر اسم أحدهم إذا اضطر إلى مناداته، ليعود إلى نسيانه من جديد فور خروجه من فمه. وهو أمر كان قد ساعده كثيرًا في عبور سنوات الجامعة سالمًا بلا أصدقاء، ونقول سالمًا لأنه كان يستشعر ثقلًا في العلاقات الإنسانية على اختلافها يحتم عليه تجنبها، دون أن يفهم سر ذلك الشعور، إذ لم يكن مبنيًّا على تجارب سابقة وهو الذي لم يكن لديه صديق أو حبيبة ذات يوم.

بعد أن فرغ ساعي البريد من توزيع الرسائل على صناديق مستحقيها، غاص برأسه في صندوقه الجلدي ليُخرج منه صندوقًا خشبيًّا مكعبًا يبلغ طول ضلعه ما يقارب الثلاثين سنتيمترًا. فتح الدرفة السفلية الكبيرة في خزانة البريد، وهي درفة مخصصة للطرود الكبيرة التي لا تستوعبها صناديق الرسائل. وضع الصندوق الخشبي بداخلها وأقفلها مستخدمًا رمزًا سريًّا ضبط عليه عجلات الأرقام في القفل الأسطواني، ثم دس الورقة التي تحمل ذلك الرمز في أحد صناديق البريد كي يتمكن صاحب الطرد من فتح خزانة الطرود بواسطته. لاحظ السيد سعيد أن ورقة الرمز السري لم تدخل تمامًا في فتحة صندوق البريد وأن بوسع أي أحد سحبها. أراد تنبيه الساعي إلى هذا الأمر لكنه خشي أن يفزعه بصوته وقد بات الآن على يقين بعد مرور كل هذا الوقت أن الرجل لا يراه، فإذا حدث وأفزعه فعلًا فلا شك في أنه لن يتوانى عن ضربه طالما يمتلك مثل غيره من الناس يدين كاملتين، بل وساقين أطول من ساقي ذلك الرجل في طابور الخبز.

سأدفعها بنفسي داخل الصندوق. فكر مترقّبا مغادرة الساعي كي يقوم بهذه المهمة التي بدت له في غاية الخطورة، إذ لم يسبق له التدخل في أمر لا يخصه حتى وإن طلب منه صاحب الأمر نفسه يد العون. لكن يبدو هذه المرة أن ذلك الشيء الغامض الذي دفعه إلى التلصص على عمل ساعي البريد، ها هو الآن يدفعه من جديد إلى حماية بريد جاره من السرقة.

دفع ساعي البريد عربته أمامه ومضى. أمسك السيد سعيد بالطرف البارز من الورقة وهم بدفعها، لكن شيئًا قال له توقف، في اللحظة الأخيرة.

كان لا يزال أمامه ما يقارب الساعة على بدء الدوام، وهي ما يستغرقه كل يوم في ذهابه إلى العمل مشيًا على قدميه. لكن ساقه المعطوبة بالإضافة إلى بدلته الشتوية في هذا اليوم الحارّ جعلتاه مضطرًّا إلى ركوب الحافلة التي سعى دائمًا إلى تجنّب ركوبها شأنه في ذلك شأن أغلب سكان المدينة مع اختلاف الدّوافع. هُم لتفادي ضجيج الرّكاب والتصاق الأجساد وتفشّي النشّالين، وهُو هربًا من والده.

بدأت رحلة هروبه من والده وهو في الثامنة عشرة من عمره وفق شهادة ميلاده، التاسعة وفق ذاكرته. كان حينها يصلي الجمعة رفقة والده في مسجد الحي، وهي عادة دأب والده عليها وألزمه بها منذ جنازة والدته التي أقيمت في المسجد نفسه، إذ لم يرَ والده ساجدًا قبل ذلك اليوم. لم يفهم الرابط بين موت والدته وصلاة أبيه، ولم يفهم بطبيعة الحال إصرار أبيه على إشراكه في ممارسة عبادته في كل جمعة، غير أنه لم يجد بأسًا في ذلك، طالما لن يعقب كل صلاةٍ مشيٌ في جنازة يذكره بجنازة والدته، وهو شيء لا يفضل تذكره، ليس حزنًا عليها، بل بسبب الخوف الذي تملكه في جنازتها من احتمال نهوضها من النعش وعودتها معهما إلى المنزل.

كان موتها سريعًا وخاطفًا، مرضت، تفاقم مرضها خلال ساعاتٍ قليلة ثم ماتت. أما والدُه فقد كان ميتًا منذ اللحظة التي ارتكن فيها إلى تلك الزاوية المعتمة يوم صفعة عيد الميلاد. وربما لهذا السبب بدأت تساوره فكرة الهروب من المنزل بعد وفاة والدته، إذ وجد نفسه فجأةً وحيدًا في المنزل رفقة رجلٍ ميت. لكن لم يكن في وسعه اتخاذ خطوة الهروب قبل أن ينهي تعليمه المدرسي، فهو يحتاج إلى إنفاق والده. ولهذا أرجأ الأمر إلى حين وصوله إلى الجامعة، إذ سيمكنه حينها -كدأب كثير من الطلبة- أن يجمع بين الدراسة والعمل لينفق على نفسه.

ها هو الآن يجلس في المسجد بجانب والده في الجمعة التي أعقبت يوم إعلان نتائج الثانوية العامة ونجاحه فيها. الآن إذن صار في وسعه المضي في ما خطّط طويلًا له.

أنهى الإمام خطبته، أقام الصلاة، اصطف المصلون وراءه، سووا صفوفهم، اعتدلوا وتراصوا، وبدأت الصلاة.

في السجدة الثانية، وبينما كان والده يتمتم بصوتٍ مسموع: «رب اغفر لي ولوالديَّ وارحمهما كما ربياني صغيرًا»، رفع سعيد وجهه عن الأرض ونهض بين الساجدين حتى استقام. استدار بهدوء، وشق طريقه بين قباب الأجساد الهامدة، بخطواتٍ متقافزة وكأنه يعبر جمرًا، وغادر المسجد.

بعد خمسة أشهر من هروبه، وبينما كان يهم بركوب الحافلة في المدينة الصناعية المزدحمة التي التجأ إليها والتحق بجامعتها، لمح والده جالسًا على أحد المقاعد الخلفية، لكنه كان سارحًا كعادته فلم يره بدوره. التفَّ من فوره وهبط من الحافلة قبل أن تتابع مسيرها. ومنذ ذلك اليوم لم يعد السيد سعيد يركب الحافلة إلا لظرفٍ قاهر كهذا الذي يعيشه الآن مع سترته الشتوية وساقه المعطوبة، شريطة أن يُجري بعينيه المنتبهتين مسحةً احترازية لجميع مقاعد الحافلة قبل انطلاقها، وأن يظل متيقظًا كلما توقفت، فربما كان والده من بين الصاعدين. وها هو اليوم يقوم بنفس الإجراءات الاحترازية بنفس الصرامة والحذر رغم بلوغه الخامسة والأربعين وبرغم أن والده الآن يرتاحُ في سجلات الموتى منذ زمن طويل. بل وقبل كل هذا: رغم يقينه أن والده لم يخرج يومًا للبحث عنه منذ هروبه.

توجّه إلى مصنع النسيج

حين توقفت الحافلة عند الإشارة الضوئية المحاذية لحديقة العمال، صار في وسع السيد سعيد أن يرى من خلف الزجاج الكالح ذُرى المداخن السبع وقد تصاعدت منها أعمدة الدخان البيضاء مُضفيةً على زرقة السماء الصافية شحوب جدارٍ عتيق. ستنعطف الحافلة يمينًا بعد الإشارة الضوئية لتلتفَّ حول مساكن العمال في طريقها لبلوغ موقف الحافلات المسمى بموقف المصانع، حيث البوابة الرئيسة لمجمع الصناعة الذي يضم المصانع السبعة، والتي سُميت المدينة نسبةً إلى مداخنها بمدينة المداخن السبع.

في أحد هذه المصانع يعمل السيد سعيد محاسبًا منذ عشرين عامًا، وهو مصنع نسيج كبير يضم مئات العمال. وقد كان السيد سعيد واحدًا منهم خلال سنوات دراسته الجامعية في كلية الاقتصاد. كان واحدًا منهم كوصفٍ وظيفي وحسب، أما دون ذلك فقد كان منفصلًا عنهم تمامًا، فلا يجالسهم ولا يتناول طعامه معهم ولا يكلمهم بغير ما يقتضيه العمل. لقد كان بالنسبة إليهم أقرب ما يكون إلى ماكينات المصنع منه إلى زميل عمل أو رفيق كفاح. غير أن تماهيه هذا مع الآلات لم يمنع عنه نصيبه من الضرب. فالإنسان كثيرًا ما يشعر بالحاجة إلى ضرب أي شيء أمامه حتى وإن كان هذا الشيء آلةً صماء، لكن العمال بطبيعة الحال لن يكون في وسعهم إفراغ غضبهم من الحياة أو سخطهم على النظام الرأسمالي في الماكينات، لأن هذا يعني تغريمهم ثمن إصلاحها وطردهم من العمل، أما السيد سعيد فهو ماكينة بلا ثمن، إن جاز لنا قول هذا، فلا تنطوي على إيذائه أية مخاطر تُذكر طالما لن تعقبه شكاية منه إلى الإدارة. لكن الجيد في الأمر هنا أن أحدًا من العمال لم يكن ليجرؤ على أكثر من صفعةٍ على الوجه أو ركلةٍ في المؤخرة في أسوأ الأحوال، فالضرب المبرح يندرج وفق اللوائح الداخلية ضمن أعمال الشغب، ما سيترتّب عليه إنزال عقوبة دون الحاجة إلى تسجيل شكوى من المُعتدَى عليه، وهو أمرٌ جعل السيد سعيد يشعر دائمًا بالامتنان والتقدير بل وبشيء من الإجلال للنظام الرأسمالي متمثلًا في مراقب العمال حين كان عاملًا، ثم في

رئيس قسم المحاسبة وكل إداري في المصنع بعد أن تخرَّج في الجامعة وبات أحد محاسبيه المتفانين في عملهم. ونعني هنا مرةً أخرى تفاني الآلات، إذ لم يتغير شيء بالنسبة إليه غير المُسمَّى الوظيفي وما ترتب عليه من زيادة في الأجر بالإضافة إلى تحوله من الدوام الليلي إلى الدوام الصباحي.

لديك زيارة عائلية

ترجَّل السيد سعيد من الحافلة في موقف المصانع. كانت ساقه اليسرى لم تزل على حالها، ولم يكن الوقت قد حان بعدُ للسماح للموظفين بدخول المبنى الإداري، فقرر أن يجلس في مقاعد موقف الحافلات إلى أن يحين وقت العمل. كان جلوسه هناك ببدلته الشتوية السميكة في ذلك الصباح الصيفي الحار مشهدًا لافتا للأنظار، غير أنه لم ينتبه بطبيعة الحال إلى تلك العيون المحدقة، إذ ظلّ غارقًا كالعادة في عالمه، مُتخيلًا لوحَ لعبة المونوبولي الذي يستدعيه في كلّ مرةٍ وجد نفسه محاطًا بالبشر. لكنه وبرغم هذا، كان يشعر بخطرٍ ما يحدق به.

أخذ يتململ على مقعده بينما يتصبب عرقًا، وراح يشاغل نفسه عن هواجسها باللهو بربطة عنقه الفاقعة، دون أن يخطر بباله أن فعلًا كهذا كان من شأنه أن يشد العيون إليه أكثر، بل وربما يستفز عاملًا جاء بثيابه البالية إلى المصنع وسيرتدي عما قليل اللباس الأزرق الموحد الذي يحوله كغيره من العمال إلى أداة من بين مئات الأدوات المتطابقة التي صُبَّت في نفس القالب وصُبغت بنفس اللون. ولأنّ توقع البلاء يمهّد الطريق لوقوعه، فإن ذلك العامل الساخط ظهر له من حيث لا يدري.

كان السيد سعيد مطرقًا برأسه بينما يداه الضئيلتان لا تزالان متعربشتين بربطة عنقه، حين اقتحم نطاق رؤيته على بلاط الرصيف حذاءان هائلان بمقاس ٤٦. أغمض عينيه على الفور منتظرًا الصفعة التي ستفقده سمعه بلا شك لبضع ثوانٍ.

هنا، ولأول مرةٍ في حياته، حطت على كتفه يد امرأة.

كان لا يزال مغمض العينين، لكن خفة الشيء الذي حط على كتفه، وما أسراه من اضطرابٍ لذيذٍ في عروقه، جعلاه على يقين بأنها يد امرأة. لم يجرؤ على رفع رأسه. هو يحسّ الآن

بخوفٍ مضاعف، خوف كبير يفوق طاقة احتماله، خوف من شيء جديد بدا له أشد خطرًا من الأذى الجسدي.

حاول ازدراد بعض اللعاب من فمه لترطيب حلقه لكن فمه كان أشد جفافًا من حلقه، فاجتاحته نوبة من السعال المحموم راحت تهز جسده بضراوة حتى ظن الناس من حوله أنه انتفاض المُحتضَر اختناقًا.

«أنت بخير؟» سألته المرأة بصوتٍ ناعس حنون بدا له كالغناء. كانت يدها قد غادرت كتفه مع أول اهتزازةٍ لجسده، ولقد أحس بذلك من فوره رغم الحالة الصعبة التي كان يمر بها في تلك اللحظة، ما جعله يظن حينها أن المرأة التي أرعبه وجودها بجانبه قد ذهبت إلى حال سبيلها. أما الآن وقد علم أنها لم تغادر، فقد شعر بنقيض ما كان يفترض أن يشعر به: الطمأنينة.

توقفت فجأةً نوبة السعال، وهدأت نبضات قلبه، فرفع رأسه. رأى العامل الضخم يجر جسده الهائل مبتعدًا عنه.

«هل أنت بخير؟» أعادت عليه السؤال، فالتفت إليها.

لم يحدث له قط أن اقتربت منه امرأة إلى هذا الحد. كان في وسعه أن يحس بحرارة أنفاسها، وأن يشم رائحة المرطب الذي دهنت به بشرتها، وأن يرى الشقوق التي استعصت على الطلاء الأحمر القاني في شفتيها. وكان في وسعه أيضًا، أن يرى انعكاس بريق عينيه على حدقتيها السوداوين.

هز رأسه هزةً مضطربة أراد أن يقول بها: نعم، أنا بخير. لكنها لم تفهم شيئًا من تلك الإيماءة المبهمة.

مدت يديها السمراوين إلى ربطة عنقه وأرخت عقدتها بينما تقول بحنوٍّ مُحيِّر: «أظنك بحاجةٍ لبعض الهواء».

حرارة يديها التي استشعرتها مسام عنقه، وحركة أصابعها كرفرفةِ العصافير على صدره، كتمت أنفاسه تمامًا هذه المرة.

لم يلزم السيدة الشابة الكثير من الفطنة كي تلاحظ أنه على وشك الإغماء، فتراجعت بخفةٍ مبتعدةً عنه، وصرخت في مَن احتشدوا حولهما من العمال والموظفين سواء من أرادوا أن يشهدوا موت الرجل اختناقًا إثر نوبة السعال تلك، أو الذين استثار اقترابها منه خيالاتهم الجنسية الجامحة.

«هيا ابتعدوا من هنا! دعوا الرجل يستنشق بعض الهواء!».

لقد أفزعه أن الشابة تمتلك صوتين متناقضين، وأفزعه أكثر أن التي تجلس الآن بجانبه هي صاحبة الصوت الثاني، الصوت الذي ذكره بوالدته.

تظاهر بمطالعة الوقت في ساعته وهمَّ بالنهوض، فجذبته بذراعه قائلةً، وقد استعادت الآن صوتها الأول: «انتظر أرجوك، أحتاج مساعدتك».

كان يتمنى لو بمقدوره الالتفات إليها من جديد ليستعيد تلك اللحظة التي بدت له مخيفةً حد الموت رغم عذوبتها، وعصيةً على الفهم رغم وضوحها، لكن هذا لم يعد ممكنًا بعد أن علم أنّ أمّه قد نهضَت فعلًا من نعشها في تلك الجنازة، ومشت كلّ هذه السنين قبل أن تصل إلى هذا الوجه الذي يقطرُ فتنةً وتسكنَه.

«أساعدك؟ أنا؟ بماذا؟» قال متطلعًا إلى واجهة الحافلة التي وصلت فورًا. لقد أحس بصعوبةٍ بالغة في نطق تلك الكلمات الثلاث، وكأنها أول الكلام وآخره.

صندوق المجتمع

عمّت حالة من الاضطراب في قسم المحاسبة ذلك الصباح. لقد دقت الساعة الثامنة دون أن يظهر السيد سعيد ببدلته الرسمية. كان زملاؤه في القسم قد حفظوا تاريخ ميلاده واعتادوا حضوره بالبدلة البنية وربطة العنق الصفراء في هذا اليوم. لم يبادروا في أي مرة، بطبيعة الحال، بأي فعل إزاء هذه المناسبة، كأن يقيموا له مثلًا حفلًا مفاجئًا أو يتشاركوا شراء هدية أو حتى كعكة وبضع شموع، وهو الذي لم يشاركهم الاحتفال بعيد ميلاد أيٍّ منهم طوال سنين خدمته معهم، بل لم يكن حتى يبادر بتهنئة أحدهم في أيٍّ من المناسبات، وإذا ما بادره أحدهم بالتهنئة في عيد ميلاده أو الأعياد العامة كان يكتفي بغمغمةٍ مبهمة تُشعر المهنئ بالندم على تهنئته، إلى أن باتوا يكتفون جميعًا بتبادل الابتسامات فيما بينهم حين يطل عليهم ببدلته تلك في يوم عيد ميلاده.

في حقيقة الأمر، لم تكن ابتساماتهم تلك مدفوعةً بالسخرية، وإن بدأت كذلك في سنواتها الأولى، إلا أنها قد تحولت بعد ذلك إلى مجرد طقس يمارسونه فيما بينهم كل عام، ربما تعبيرًا عن امتنانهم للحياة على رتابتها، وهي شيء تزداد حاجة المرء إليه كلما تقدم به العمر وأرهقته تقلبات الأيام.

على الجانب المقابل، كان السيد سعيد موقنًا تمامًا أن امتنانهم السنوي هذا بفضل وجوده في حياتهم، والذي لا علم له به، إنما يقابله الكثير من سخطهم على مدار العام بفضل وجوده أيضًا، فهو لا ينفك يذكّرهم بين كل حين وحين بالوحش الكامن فيهم بسبب تلك الطاقة الجاذبة للضرب التي يمتلكها.

كانت أولى ضحاياه من بينهم، إن جاز تشبيهٌ كهذا، هي السيدة سميرة، سكرتيرة رئيس قسم المحاسبة، وقد حصل ذلك بعد أسبوع من استلام وظيفته.

كانت السيدة سميرة منكبةً على طباعة التقرير السنوي حين اقتحم السيد سعيد مكتبها دون أن يطرق الباب. كان حينها في أوائل العشرينات بينما كانت هي في منتصف عقدها الرابع. نظرت إليه فزعةً وسألته: «من أنت؟» لكنه لم يجبها. صمت قليلًا، ثم قال متطلعًا إلى الآلة الكاتبة أمامها: «أريد دخول الحمام». وقد كان له هذا، غير أن الفرّاش هو الذي قاده نحوه ليغسل وجهه من الحبر.

حين استرجع الحادثة في مخيلته مساء ذلك اليوم، فإن أول ما فكر فيه، بكثيرٍ من الإعجاب، هو السرعة المذهلة لدى السيدة سميرة في التخلص من مشاعر الغضب، إذ سرعان ما عادت إلى استئناف الطباعة وكأن شيئًا لم يكن، بعد أن مرّغت وجهه بمفاتيح الآلة الكاتبة.

إن حالة الاضطراب التي عمت القسم هذا الصباح، لم تكن بسبب وقوع خلل في رتابة الحياة داخل وعيهم وحسب، وإنما أيضًا لأنها المرة الأولى التي يتغيب فيها السيد سعيد عن العمل منذ أكثر من عقدين لم يأخذ خلالهما إجازةً واحدة، لا في مرضه ولا حين يكون معصوب الرأس يعرج على إحدى ساقيه. شيء ما كان يجعلُ من وجوده اليوميّ ركيزةً ثابتةً للعمل على هشاشتِه ولامرئيته. ولهذا بدا لغيابه اليوم مبرّر وحيد في أذهانهم، وهو أن مكروهًا ما أصابه.

اقترح السيد شاكر، وكان أكبرهم سنًّا إذ شارف على التقاعد، أن تتصل السيدة سميرة بهاتف منزله. لكن ذلك لم يكن ممكنًا إذ وجدت خانة الهاتف في سجله فارغة. وكذلك وجدت خانة العنوان. لم ينتبهوا إلا اللحظة إلى حقيقة أنهم لا يعرفون عنه شيئًا غير اسمه ومهارته في إعداد مذكرة التسويات البنكية، بالإضافة طبعًا إلى تاريخ ميلاده. على ضوء كلّ ما سبق بدا من السّهل إقناعهم بأنّه لم يكن سوى شبح يسكن بين جدران المبنى الإداري ولم يسبق لأحد أن أثبت أن له وجودًا خارجه.

«ربما كان السيد رئيس القسم يعرف عنه شيئًا». اقترح أحدهم.

«سأسأله فور وصوله». قالت السيدة سميرة بصوتها الخشن، وطالبت الموظفين بالهدوء والعودة إلى مكاتبهم.

عليك أن تدفع ضرائبك المتأخرة

لم ينظر السيد سعيد إلى النساء طوال سنين حياته الماضية نظرةً مغايرة للتي ينظر بها إلى أبناء جنسه، بل إنه في سنوات مراهقته كان الأمر الوحيد الذي يحيره بشأنهن هو سر اختصاصهن ببعض الملابس كالفساتين والتنانير، أما ما كان يشغل غيره من الأولاد من شكل نهودهن وما بين أفخاذهن فلم يشغله في يوم من الأيام، حتى إنه حين رأى لأول مرة صورة امرأةٍ عارية، وكان حينها في الصف العاشر، لم يشعر سوى بتلك الدهشة اللحظية التي تعتري المرء عند رؤية كائن غريب لأول مرة. ولم يحاول بعدها أن يرى المزيد سواء في الواقع أو من خلال الصور والأفلام.

ثم في سنوات الجامعة، ومع انتقاله من مناخ الفصل الجنسي إلى البيئة المختلطة، بدأ يلاحظ انجذاب الجنسين بعضهما إلى بعض وسعيَ كلٍّ منهما إلى العثور على شريك له من الجنس المقابل. كما لاحظ أيضًا أنه لم يكن محط إعجاب أيٍّ من زميلاته، غير أن ذلك الأمر لم يخلق لديه أية مشكلة، إذ كان الراسخ في ذهنه أن انجذاب الأنثى إنما يجيء دائمًا كردة فعل لانجذاب الرجل، وهو الأمر الذي لم يشعر به يومًا تجاه أيٍّ من زميلاته. كان يرى تغامزهن وضحكهن بينما ينظرن إليه إذا مرَّ أمامهن في حرم الجامعة أو جلس خلفهن في المدرجات، لكن هذا أيضًا لم يتسبب له بأي عبء نفسي، تمامًا كتقبله لنظرات الإشفاق والسخرية على حدٍّ سواء، التي كان يراها في عيونهن إذا تعرض للضرب من أحد زملائه الذكور.

إن انفصاله الذهني الدائم عمن حوله من الناس، شكَّل لديه مناعةً نفسية وذهنية يستحيل اختراقها في لحظات انتباهه لوجودهم حوله، أيًّا كان ما يقومون به تجاهه في لحظة الانتباه تلك من أذًى نفسي أو جسدي. وربما كان هذا الانفصال أيضًا هو الذي أدى به إلى رؤية كلا الجنسين على قدم المساواة، إذ كيف في وسع المرء أن يلمس الفارق بين شيئين دون إعمال إحدى حواسه على الأقل في كلٍّ منهما؟

وها هو الآن بعد أن أعمل رغمًا عنه جميع حواسه في هذه المرأة، وإن لبضع ثوانٍ، فإن تلك الثواني القليلة كانت كافيةً لزعزعة مناعته، ما أدى إلى حدوث شرخ في وعيه، تسللت عبره تلك المشاعر المبهمة التي بدت له أقوى من أن يستطيع مقاومتها، لكنها في الوقت نفسه لم تكن أقوى من حضور والدته المختبئة في جسد تلك المرأة.

لم يُجرِ السيد سعيد المسحة الاحترازية المعتادة بينما يصعد الحافلة رفقة السيدة السمراء، إذ لم يعد الآن أي معنًى لهروبه من والده بعد أن صار في قبضة والدته. وكم تمنى الآن لو كانت لديه جرأة الهروب منها كما تجرأ على الهروب من والده، إذ صار واضحًا في قرارة نفسه، أنّ كل خطوةٍ مشاها في ذلك الصباح كانت مُحتملة لتنتهي في المُحصلة إلى توقفه عندَ موقف الحافلات، وكلعبة المونوبولي، عليهِ الآن أن يدفَع ثمن توقفهِ ذاك.

التصقت فخذه بفخذ المرأة فور جلوسهما في الحافلة، فتكفلت حرارة فخذها، التي سرت من فورها في عروقه، بإشغاله عن والدته حتى نسي وجودها تمامًا. لكنه سرعان ما كان يتذكرها كلما تحدثت المرأة، حتى وإن كان بصوتها الأول الهادئ، الصوت الذي كان من المفترض ألا يذكره بوالدته.

كانت قد وجهت إليه سؤالين اثنين قبل صعودهما الحافلة: «هل تسكن بيتاً بمفردك؟» وحين هز لها رأسه بالإيجاب قالت: «يمكن أن تستقبلني عندك ضيفةً لليلةٍ واحدة؟» كان بمقدوره هنا أن يجيب بالنفي بكل تأكيد، وربما كان هذا ما سيفلعه حتى وإن اضطر إلى الفرار منها لعدم مقدرته على قول «لا»، لولا أن من كانت تسأله حينها هي والدته، فما كان منه إلا أن هز رأسه موافقًا، بل وناسيًا تمامًا حقيقة أنه إنما كان جالسًا هناك بانتظار الدخول إلى العمل.

تزاحمت الكلمات في فمها وهي تسردُ عليه سريعًا قصتها بعد أن صعدا إلى الحافلة، رغم شعورها بأنه غير آبهٍ على الإطلاق بسماع أسباب طلبها المبيت في منزل رجلٍ غريب. غير أنها ظلت مصرةً على إخباره، ربما كي لا يظن أنها مومس جاءت تتصيّد زبونًا أعزب في موقف الحافلات.

وهي حكاية قصيرة على أية حال لم يتطلب سردها سوى دقيقتين، تتلخص في أنها وصلت إلى مدينة المداخن السبع في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم قادمةً من مدينة الجسور للتقدم إلى وظيفة في مصنع الألبان، وهو مصنع محاذٍ لمصنع النسيج حيث يعمل السيد سعيد. كان من المفترض أن تجري مقابلتها في تمام السابعة بحسب الموعد المتفق عليه عبر الهاتف، لكنها تفاجأت لدى وصولها المصنع بأن الموعد قم تم إرجاؤه إلى صباح الغد «لأسباب خارجة عن الإرادة» كما أخبرتها سكرتيرة مدير الموارد البشرية. ولمَّا كانت لا تملك من النقود ما يكفي للمبيت في فندق، ولا لدفع أجرة تذكرتي قطار إضافيتين لو اختارت الرجوع إلى مدينتها ومن ثم العودة من جديد إلى هنا صباح الغد، فقد قررت أن تجلس في موقف الحافلات أمام بوابة مجمع الصناعة وتبحث عمن تستريح للحلول ضيفةً على بيته حتى صباح الغد.

«لمَ لا تخلع هذه السترة السميكة؟» قالت متطلعةً إلى العرق المنساب على جبينه، فامتثل من فوره لاقتراحها، بالطريقة نفسها التي كان يستقبلُ بها أوامر والدته واجبة التنفيذ.

«وهذه الربطة». قالت، فخلع ربطة عنقه دونما إبطاء. وربما لو أنها أمرته بالتجرد من جميع ملابسه في تلك الحافلة المزدحمة لما تأخر عن فعل ذلك.

كانت الحافلة تسير ببطء، أو هذا ما خيل إليه، وبدا له الطريق طويلًا بلا نهاية.

حين مرت الحافلة بنادي التنين الكبير، تذكر قراره تعلم تلك المهارة الغريبة، وفكر في أن المهارة التي يجدر به تعلمها حقًّا هي الهروب ممن يريد إيذاءه، وخصوصًا والدته التي لم يهرب منها ولو لمرة واحدة من بين مئات المرات التي ضربته فيها رغم يقينه في كل مرة بأنها مقبلة على ضربه.

«لماذا تتجنب النظر إليَّ طوال الوقت؟» سألته باسمةً، لكنه بطبيعة الحال لم يرَ تلك الابتسامة، فتلقى سؤالها على هيئة أمر جديد من والدته، لكنه هذه المرة لم يقوَ على

إطاعتها، تمامًا مثلما لم يكن يستطيع التطلع إلى وجهها في طفولته حين كانت تأمره بذلك رغم علمه بأن عصيانه ذاك ستعقبه صفعةٌ ساخطةٌ على وجهه.

رقعة المونوبولي

لم يلزمها سوى بضع خطوات بعد ترجلهما من الحافلة لتلاحظ أن خطبًا ما بساقه اليسرى. ظنته بادئ الأمر يعاني إعاقةً دائمة، لكن تألمه البادي على وجهه أفهمها أنه إنما يشكو من إصابةٍ حديثة، ما بعث الطمأنينة في نفسها، إذ لم تكن ترغب في تحمل المزيد من عبء الإشفاق عليه.

«ما بال ساقك؟» سألته وقد توقفت عن المشي.

كان قد أخبرها حين بلغت الحافلةُ المحطّةَ التي ترجّلا عندها، أن عليهما السير عشر دقائق لبلوغ المنزل، ما جعلها الآن بعد أن انتبهت إلى الصعوبة التي يمشي بها، تُسائل نفسها ما إذا كان سيقوى على قطع هذه المسافة حقًّا.

«تؤلمني قليلًا». أجابها دون أن يتوقف عن المشي، بل إنه حث خُطاه العرجاء، وكأنه أحب أن يستشعر إحساس الهروب.

«توقف!» قالت بصوتها الثاني، فجمد في مكانه حتى كاد أن يسقط. لحقت به، ووقفت إزاءه، وقالت بنفس الصوت: «أعلم أنها تؤلمك! أردت أن أعرف ما الذي أصابها».

لم تكن لديه أية مشكلة بكل تأكيد في إخبارها بأنه تعرض لأربع رفسات مساء الأمس، لو أنها امرأة غريبة وحسب. لكنها الآن والدته التي كانت تضربه كلما علمت بأن أحدًا من الأولاد قد ضربه.

«أعطني هذه». قالت هذه المرة بصوتها الأول بينما تسحب السترة الثقيلة من بين يديه، وقد فهمت من الارتباك البادي على وجهه أنه لا يفضل التحدث في الأمر.

وقفت بجانبه وألصقت كتفها بكتفه، وقالت: «هيا، سأساعدك قليلًا».

ظل متخشبًا مثل فزاعة أسدلت ذراعيها، إذ لم يفهم ما المساعدة التي تعنيها، فقالت بعد زفرةٍ طويلة: «ضع يدك على كتفي، ستتعكز عليَّ».

كانت قد طوقت خصره بذراعها من خلف ظهره بعد أول خطوتين، ما جعل طرف نهدها المكور يحتك بجنبه مع كل خطوة، حتى إذا بلغا مدخل العمارة كان سرواله الداخلي مبتلًّا بماء شهوته، رغم كل الارتباك والخوف والألم.

«في وسعي صعود الدرج بمفردي». هذا ما حاول قوله بتلك الغمعمة التي صدرت من تحت شاربه المتعرِّق. وبدأ بارتقاء الدرجات أمامها متعكزًا على الدرابزين، فتبعته وقد تعمدت البقاء خلفه تمامًا كي تسنده إذا ما تعثر فجأةً.

ثمة شيء غريب في هذا الرجل جعلها تشعر تجاهه بما يشبه الأمومة رغمًا عنها، وهو شيء لم تشعر به يومًا تجاه أيّ رجل. هو رجل وحيد مصاب في ساقه لا يميز اللباس الصيفي من الشتوي، لا أذى يمكن أن يصدر عنه. قالت لنفسها كأنها تطرد هواجسَ أزفَ وقت اشتدادها.

بلغا أخيرًا باب شقته. وهنا تملَّكها الخوف حتى كاد يشلّ قدميها عن التقدم؛ إنها مقبلة على دخول منزل رجلٍ أعزب التقته من فورها. كانت على وشك الانسحاب وكأنها قد استفاقت فورًا من الجنون الذي جعلها تتخذ ذلك القرار الطائش بالمبيت في منزل رجل غريب لتوفير بعض النقود.

فتح السيد سعيد باب الشقة وسبقها إلى الدخول، فتعثر بالعتبة من فرط ارتباكه وسقط أرضًا، وهي حادثة على بساطتها كانت كفيلةً بإعادة الطمأنينة إلى قلبها دفعةً واحدة، إذ كان من شأنها أن تذكرها بسبب اختيارها إياه دون سواه من الرجال في موقف الحافلات، فهي حين جلست وحيدةً هناك صباح اليوم لم تكن تبحث بالطبع عن أي رجلٍ متاح، بل كانت تفتش عن رجل يؤمَن جانبه، وقد بدت لها مهمةً صعبة بكل تأكيد، إذ لم يكن في ذهنها أي معيار تستطيع أن تبني عليه حكمها في هذا الخصوص. كان حدسها هو أداتها الوحيدة، وهو حدس لم يخذلها في يوم من الأيام، وهو الذي أنبأها حين وقعت عيناها

على السيد سعيد فور نزوله من الحافلة بأنها قد عثرت على ضالتها. كانت على وشك النهوض إليه حين رأته يطالع ساعته بينما يمسح العرق عن جبينه، لكن القدر كان مغدقًا في كرمه معها هذا الصباح، فأجلس الرجلَ بجانبها.

لقد وجدت في هذه الهبة السماوية فرصةً مواتية للتحقق من صحة حدسها، فأخذت تراقبه بانتباهٍ شديد. كانت تصرفاته مربكةً بعض الشيء، ناهيك عن بدلته الشتوية التي ظل مصرًّا على ارتداء سترتها رغم شلال العرق المنهمر من جبينه. تململه على المقعد، لهوه بربطة عنقه كل قليل، وانفصاله التام عن كل ما يدور من حوله، إذ لم يرفع عينيه عن الأرض حين تعالى صراخ عاملين على بعد بضعة أمتار منه كانا على وشك التشابك بالأيدي. غير أن سلوكه المربك ذاك، لم يبعث الارتياب في قلبها تجاهه، وهذا تمامًا ما كانت في حاجة إلى التأكد منه كي تطمئن إلى صواب حدسها. ومع هذا فإن خطوةً أخيرة لم تجد بأسًا في القيام بها طالما كانت الفرصة مواتية: ستخضعه لاختبار سريع.

اقتربت منه حد الالتصاق، وباغتته بوضع يدها على كتفه، متوقعةً انحصار رد فعله بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يصدها بحدة وهذا ما كانت ترجوه، أو أن تميّز نظرةً خبرتها جيدًا من رجال كثيرين. لكنها حتمًا لم تكن تتوقعُ ردة فعل ثالثة: أن يرتبك ويغرق في مكانِه. وهي ردة فعل كانت مُرضيةً لها أكثر من الصد، فقد يصدها الرجل تظاهرًا بالعفة أمام الناس، أما أن يكون بريئًا كطفل، فذلك ما دفعتْها الحياة إلى أن تكفر تمامًا بإمكانية وجوده ومنذ زمنٍ طويل.

مدت يدها لتساعده على النهوض لكنه تدبر الأمر بمفرده، وغمغم يدعوها إلى الدخول بعد أن عدل هندامه.

ناولته سترته وربطة العنق. فكر للحظة في ارتدائهما من جديد، لكنه رأى النهي في عينيها وكأنها تقرأ أفكاره، فأخذهما إلى الداخل، بينما ظلت هي واقفةً في الصالة بانتظاره.

كان منزله شديد النظافة والترتيب على عكس ما توقعت من منزل رجل عازب، أو ربما بعكس ما توقعت على الأقل من رجل يرتدي بدلةً من الجوخ السميك في منتصف الصيف.

لفتتها رقعة المونوبلي المفرودة على الطاولة في زاوية الصالة فتوجّهت نحوها. كانت رزمات نقود اللعب مرصوصةً بجانب الرقعة وقد رُتبت بعناية وفق الفئات النقدية، مثلما رُتبت بجانبها صكوك العقارات غير المشتراة، ووُضعت في المكان المخصص من الرقعة كلٌّ من بطاقات الفرصة وصندوق المجتمع، وكانت معظم العقارات مشغولةً بالمنازل والفنادق.

بدا كل شيء في اللعبة طبيعيًّا إذن باستثناء أمر واحد: لم تُوزع سوى حصة نقدية واحدة من الحصص التي توزع على اللاعبين، وكانت بجانبها صكوك العقارات المشتراة بالإضافة إلى إحدى بطاقات الفرصة، كما لم يكن على الرقعة سوى رمز معدني للاعب واحد، وقد اختار هذا اللاعب رمز المكواة، وكان متوقفًا في خانة موقف السيارات المجاني.

تناولت حجري النرد وألقتهما في الرقعة بعد أن أغمضت عينيها بينما تُقبِّلهما كما اعتادت أن تفعل حين كانت تلعبها في سنين صباها. توقف كل منهما على الرقم ١، ما يعني أن عليها التحرك خطوتين. حركت المكواة إلى خانة الفرصة، ومدت يدها لسحب بطاقة، لكنّ شعورًا غامضًا تملكها بأن ذلك الرجل الغريب إنما يعيش حياته الحقيقية داخل هذه اللعبة، وإن هي تجرأتْ على العبث بأيّ شيءٍ داخل هذه الرقعة، فمن شأن ذلك أن يقلب حياته كلّها رأسًا على عقب.

في لحظةٍ خاطفةٍ تُشبه الاستنارة، شعرت بأنّ ماضيه وحاضره ومستقبله إنما هي الآن على مرمى يدها. ها هي لأول مرة تملك زمامَ شيء، صحيح أنها ليست حياتها، لكنها في النهاية حياة. وبقدر ما أثارها هذا الشّعور، بقدر ما أخافها.

أعادت المكواة إلى خانة المواقف المجانية، وراحت تذرع الصالة متأملةً ذائقة الرّجل في فرش منزله.

كانت حوائط الصالة مطليةً بالأخضر العفني، وقد خلت من أية لوحة، كما خلت الصالة بأسرها من أية نبتة زينة أو تحفة. لم تكن تضمّ سوى فرشٍ بسيط، فبالإضافة إلى طاولة المونوبولي لم يكن هناك سوى كنبتين صغيرتين من الخشب الرخيص بفُرشٍ إسفنجيّة مكسوّة بمخملٍ رماديٍّ داكن، وُضعتا متقابلتين تحُول بينهما طاولة شاي خشبية مُدوَّرة. بالإضافة إلى ستارة بلون الكمون ذات زخارف دقيقة لم تتبين لونها، تحجبُ خلفها النافذةَ الوحيدة في الصالة.

اقتعدت أخيرًا إحدى الكنبتين ووضعت ساقًا على ساق بانتظار عودة المضيف الذي بدا لها أنه تأخر قليلًا. وبعد أن طال انتظارها بدأ القلق يساورها، فتوجهت إلى الغرفة المجاورة حيث رأته يدخل حاملًا سترته، وقرعت الباب للتحقق، ربما، أنه لم يزل في عالمنا ولم ينتقل إلى أحد منازله على رقعة المونوبولي.

يمكنك تأجيل بعض الالتزامات

بعد انقضاء الساعة الأولى من اختفاء السيد سعيد، كان الهدوء قد عاد تمامًا إلى قسم المحاسبة. كانت السيدة سميرة جالسةً في مكتبها تعاين طلاء أظافرها، بعد أن أدخلت بنفسها القهوة لرئيس القسم الذي وصل قبل قليل. لم تسأله بطبيعة الحال عمَّا إذا كان يعرف عنوان السيد سعيد كما وعدت زملاءها في القسم، إذ نسيت الأمر برمته كما نسيه بقية الزملاء. لقد نسوا غيابه جميعًا، مثلما ينسى المرء منامًا مزعجًا أيقظه من نومه فور انشغاله بشؤون يومه.

شخص واحد فقط في ذلك المصنع كان لا يزال قلقًا حيال غياب السيد سعيد.

قبل ثلاثة أعوام، وبينما كان عائدًا من السوق مساءً في عطلة نهاية الأسبوع، وصادف ذلك نهاية الخريف حيث تخلو الطرقات من الناس الذين احتموا في بيوتهم من برد التشارين، أحس السيد سعيد بشخص يتبعه. كان وقع خطاه خفيفًا، بالكاد استطاع سماعه، لكنه كان كافيًا لإثارة الذعر في قلبه، إذ لطالما أرعبته فكرة أن يتبعه أحد، ولو في وضح النهار.

أراد أن يلتفت وراءه ليرى الشخص الذي يتبعه، لكنه لم يستطع. فكر في الركض، لكنه لم يجرؤ عليه، شعر كما لو أنّه لو ركضَ فسيؤكد مخاوفه، وأحيانًا يكون توقّع البلاء أخفّ من وقوعه.

أخذت نبضات قلبه تزداد اضطرابًا إلى أن تمسمرت قدماه في الأرض، وكأنّه آلة انقطع عنها فجأةً التيار الكهربائي. عندها أحس بجسمٍ صغير يمر من بين قدميه، تطلع تحته، فماءت متطلعةً إليه.

عندما رآها على ضوء منزله، لاحظ أنها تشبهه بشكل غريب، وكأنها النسخة المصممة منه لعالم الحيوان. لكنه وبرغم هذا الشبه الأخوي الكبير، فإنه لم يشعر تجاهها بأية عاطفة، لذا

قرر التخلص منها من جديد بعد أن أعجزه التخلص منها على الطريق، إذ ظلت تطارده إلى أن بلغ باب شقته، وكانت أسرع منه بالدخول إلى الدفء.

حين رماها خارج المنزل راحت تموء على الباب مستجديةً، فسارع بإدخالها من جديد، ليس إشفاقا عليها وإنما مخافة أن تزعج الجيران، أو بالأحرى أن تذكرهم بوجوده.

وضع لها ما وجده من بقايا طعام في الثلاجة في محاولة منه لشراء سكوتها، وأخلد إلى فراشه عاقدًا العزم على التخلص منها صباح الغد. كانت تلك الليلة من أصعب الليالي التي مرت عليه منذ قدومه إلى مدينة المداخن السبع، إذ لم يستطع تحمل وجود شخص آخر في منزله يشاركه تلك المساحة الصغيرة الآمنة التي اقتطعها لنفسه من الغابة المسماة بالمجتمع الإنساني، فظل مستيقظًا حتى طلوع الصباح.

في طريقه إلى العمل، ظل يراوغها إلى أن تمكن من الإفلات منها، لكنه حين عاد إلى منزله وجدها تنتظره على العتبة، فاضطر إلى إدخالها من جديد، واضطر من جديد إلى السهر حتى الصباح لليلة الثانية على التوالي، وهو أمر يفوق طاقة احتماله، ما جعله يقرر تقديم مأوًى بديلٍ لها، في حلٍّ بدا مناسبًا للطرفين.

كان هذا المأوى هو مرآب مصنع النسيج، الذي سبق له المبيت فيه غير مرة حين كان عاملًا. لقد وجدته القطة مكانًا معقولًا وإن كانت تفضل تلك الكنبة على هذا الصندوق الخشبي المفروش بقطعة الموكيت التي عثر عليها بجانب إحدى الحاويات. لكن ما دام هذا ما يريح شقيقها الكبير فلا بأس في ذلك، شريطة أن يجلب لها الطعام صباح كل يوم، وأن يضاعف الكمية في اليوم الذي يسبق عطلة نهاية الأسبوع.

حين غاب السيد سعيد صباح اليوم، بدأت القطة (التي تركها هكذا بغير اسم) تشعر بالقلق. لقد كانت تعلم جيدًا أن اليوم ليس يوم عطلة، دون حاجتها إلى رؤية السائقين وتحرك شاحناتهم من حولها. أرادت أن تسأل أحدهم إن كان يعرف شيئا عنه، لكن هذا لم يكن

ممكنًا وقد أوصاها شقيقها بألا تحتكَّ بأحدٍ منهم إن أرادت الحفاظ على ذيلها، أو ربما روحها السابعة.

«أنا أيضًا لديَّ سبعة أرواح». قال لها في إحدى حواراته النادرة معها، فماءت تقول: «نعم، أصدقك يا أخي».

«لكنها ما كانت لتكفيني، صدقيني، لولا حذري الدائم كما ترين، وحرصي الشديد على تجنب الأذى». كان يكذب هنا، وقد أحست بأنه يكذب، لكنها ماءت مصادقةً، لتُريح رأسها ربما.

الفندق الأحمر

بينما كانت ضيفته واقفةً أمام باب غرفته تنتظر إذنه بالدخول، كان السيد سعيد مختبئًا في خزانة الثياب، عاريًا من ملابسه.

كان قد فتح الخزانة ليعلق سترته، على أن يعود بعدها إلى الصالة. هذا ما يتذكره، أما تجرده من ثيابه ودخوله الخزانة وإغلاق درفتها وراءه، فلا يعلم حقًّا كيف ومتى حدث. وهو أمر لم يفكر فيه كثيرًا، فكل ما يشغله الآن هو صرفها إلى الصالة كي يستطيع الخروج من الخزانة وارتداء ملابسه.

«أبدِّل ملابسي. انتظريني في الصالة» قال بعد أن قرعت الباب مرةً ثانية، غير أن المسافة بين الخزانة وباب الغرفة مضافًا إليها سماكة الباب وخشب الخزانة، حالا دون وصول صوته الضعيف إليها، وهو شيء لم يدركه إلا حين دقت الباب للمرة الثالثة، وكانت يدها هذه المرة أشد إصرارًا من المرتين السابقتين، فعلم أنه في ورطة حقيقية.

كانت الخزانة معتمةً تمامًا، لكنه كان قادرًا على العثور على أية قطعة من ملابسه القليلة المعلقة فيها بسهولة تامة من خلال تلمُّسِها. غير أن هذا لم يكن كافيًا كما تبين له، فها هو البنطال بين يديه، لكن ارتداءه بدا مستحيلًا في هذا الحيز الضيق الذي بالكاد يكفي لوقوفه مستقيمًا بجسده الضئيل. وهي حقيقة لم يتوصل إليها بإجراء حسبة ذهنية بسيطة في الهندسة الفراغية، بل من خلال تجربةٍ عملية كادت أن تقذفه خارج الخزانة عاري المؤخرة.

«سأدخل». أعلنت مُنبِّهةً، وفتحت الباب.

كانت أول صورة نقلتها القشعريرة إلى ذهنها حين لم تجده في الغرفة، هي صورته وقد أطل ببدلته الشتوية من نافذة فندق من فنادق المونوبولي البلاستيكية الحمراء. غير أن

الذي أفزعها حقًّا هو ما رأته في أرض الغرفة؛ كانت الأرضية مفروشةً برقع المونوبولي المتراصة كالبلاط.

«أنا هنا». جاءها صوته مكتومًا من وراء حاجز فارتجّ قلبها، وراحت تقلِّب عينيها في جنون بين ألواح اللعب تحت قدميها باحثةً عن الفندق المسكون.

«هنا أين؟» قالت بحروفٍ بالكاد استطاعت نطقها.

«في الخزانة» واهتزت إحدى الدرفتين، فتقدمت نحوها بحذر وأمسكت بمقبضها وجذبته بيدٍ مترددة، فصاح من داخل الخزانة: «لا تفتحيها، أنا بلا ثياب».

أحست بالدماء تعود من جديد إلى أطرافها، وبدأت دقات قلبها تهدأ.

لقد كان وجوده عاريًا داخل الخزانة أخفَّ وطأةً بكل تأكيد من وجوده في عالمٍ موازٍ، حتى وإن كان هناك بكامل ثيابه.

«سأنتظرك في الصالة». قالت أخيرًا بعد أن تنهدت، ومشت بحذر على ألواح المونوبولي نحو باب الغرفة وتعمّدت صفقه خلفها كي يطمئن أنها قد غادرت فعلًا.

هي بحاجة شديدة إلى النوم، وهذا الرجل غريب الأطوار، الذي بدأ يُداخلها شكٌّ حيال وجاهة اختيارها له، يبدو أنه لن يتركها تهنأ بساعة نوم واحدة.

في خزانة الثياب ومع دوي صفق الباب، أضاءت حجرة من الحجرات المظلمة في ذاكرة السيد سعيد، فرأى نفسه في السادسة من عمره، وقد اختبأ عاريًا داخل خزانة الثياب في غرفة والديه. فتحت والدته الخزانة، وسحبته بذراعه دون أدنى مقاومة منه سوى ارتجافه، وظلت تصفعه على مؤخرته العارية حتى كاد أن يُغشى عليه من شدة البكاء. ثم جرته وراءها إلى الحمام دون أن يتوقف فمها عن السباب. كان تليفها لجسده ووجهه أقرب إلى الصفع واللكم. وحين انتهت، ألبسته ثياب النوم بينما كان جسده المرتجف لا

يزال يقطر ماءً، ورمته في فراشه وهو ينشج ببكاءٍ مكتوم، وغادرت غرفته صافقةً وراءها الباب.

غادر السيد سعيد خزانته مسرعًا، لف منشفةً حول خصره، وركض إلى الحمام.

كانت الضيفة جالسةً على إحدى الكنبتين في الصالة وقد أرخت رأسها المتعب إلى الوراء، حين تناهى إلى سمعها صوت قفل باب الحمام ثم انهمار ماء الدوش.

أرجو ألا يكون الآن يُحضِّر نفسه لمضاجعتي.. فكرت وقد بدأت مشاعر الأمومة الآن تجاهه تزداد انحسارًا.

حاولت مغالبة النعاس ريثما تطمئن إلى نواياه الجديدة، لكن صوت دفق الماء الذي بدا كصوت شلالٍ بعيد، كان له أثر المنوم، فاستسلمت للنّوم الذي أخذ يسحبها إليه رويدًا رويدًا.

بينما هناك في الحمام، تحت دفق نفس الماء، كان السيد سعيد منكبًّا على حفِّ جسده بليفةٍ خشنة، مخلفًا في جِلده مع كل دعكة أثرًا بحمرةٍ كافية لإرضاء والدته التي لم تفتح عليه الخزانة هذه المرة وتركته يستحم بنفسه.

يمكنك الحصول على شريك

حين وجدها نائمةً في الصالة، لم يعلم إن كان عليه إيقاظها أم أن يتركها هكذا غارقةً في نومها، إذ لم يسبق أن استقبل ضيفًا في حياته. بل إنه لا يعلم إن كان أمرًا شائعًا في هذه الأيام أن ينام الضيف أثناء الزيارة، إذ لا يذكر أنه رأى أحدًا من ضيوف والديه نائمًا في صالة المنزل.

كانت قد اختارت لنفسها الكنبة التي اعتاد الجلوس عليها تاركةً له الثانية، وهي كنبة لم يجلس عليها ولو لمرةٍ واحدة مذ أدخلها منزله، إذ اعتاد الجلوس دائمًا على تلك المواجِهة للنافذة، والتي كان يراها أكثر من كافية لرجل يعيش بمفرده، لولا أن أجبره البائع على شراء القطعتين معًا.

«هذا طقم يا أستاذ! هل رأيت طقمًا من قطعةٍ واحدة؟» هكذا قال له البائع النزق في سوق الأثاث الواقع خلف ضاحية المعلمين، فتنازل من فوره عن تلك الرغبة التي بدا له أنها أغضبت البائع.

عندما أوصلوا الكنبتين إلى منزله ونقد عاملي التحميل خمسين قرشًا لكل منهما كحُلوانٍ كما أسمياه، وقف خلف الستارة حتى رأى من الشباك شاحنة التحميل تنطلق مغادرةً، ليسارع من فوره إلى جر إحدى الكنبتين إلى خارج الشقة، وأسند ظهرها إلى الحائط الخارجي لشقته بجانب الباب. لكنه سرعان ما عاد إلى إدخالها بعد أن تناهى إلى مسمعه صراخ جارته في بهو الطابق فخمّن أنها إنما تحتج على وجود الكنبة.

وجد السيد سعيد نفسه الآن مضطرًّا إذن إلى الجلوس على هذه الكنبة في ضوء احتلال كنبته من قِبل الكائن الدخيل على منزله.

كان قد ارتدى من جديد، بعد أن استحم، بنطال البدلة الشتوية، لكن مع قميص آخر، محتفظًا بربطة العنق الاحتفالية الصفراء، دون أن يجرؤ بالطبع على ارتداء تلك السترة السميكة التي صار في وسعه الآن تفهم معارضتها الشديدة لارتدائه إياها بينما يعاين ثيابها الخفيفة على راحته. كانت ترتدي قميصًا أسود بلا أكمام من البوبلين الخفيف، مع جينز رقيق ضيق رمادي اللون، وحذاءً رياضيًّا أبيض.

إن انتظام أنفاسها والراحة البادية على وجهها المغموس في عسل النّوم، يجعلان الرّائي يتخيل أنها مستلقية على كنبةٍ في بيتها الذي ألفته منذ سنين، لا في صالة منزل رجلٍ بالكاد تعرفت إليه.

كانت تبدو آيةً في الجمال وهي نائمة، تمامًا كما بدت له أمه حين ماتت بين يديه قبل ثلاثين عامًا.

كان يجلس حينها إلى طاولة الطعام في الصالة على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه لتناول الطعام مع والديه، وهو نفس الكرسي الذي جلس يراقب منه القناديل المضيئة بعد صفعة عيد ميلاده.

كان الليل قد انتصف متجاوزًا موعد نومه بساعات، لكن والده ليلتها أمره بالانتظار، فقد تكون هذه ساعات والدته الأخيرة في الدنيا. هكذا قال بوضوح ودون مواربة.

يتذكر أنه سمع طرقًا على الباب، فنهض وفتحه، لكنه لم يجد أحدًا، فعرف أنه ملك الموت. أفسح له الطريق وقد أحس برغبةٍ في الابتسام للضيف. ثم أغلق الباب بهدوءٍ شديد، مخافة أن يعلم والده بأنه من أدخله.

بعد لحظاتٍ قليلة، خرج والده من الغرفة، وناداه.

مشى بتثاقل إليها، كان يعلم أنها تريد توديعه. أشارت إليه بيدها أن اقترب، وحين صار فوق رأسها حاولت أن تقول له شيئًا، لكنه لم يستطع فهمه وسط الحشرجة. أمسكت يديه

ووضعتهما على وجهها. شعر بأنها تحاول صفع نفسها بكفَّيه، لكن يديها كانتا واهنتين.

لم يعد يشعر بأنفاسها على يديه. سحبهما ببطء وسط نشيج أبيه، فتبدى له أجمل وجهٍ رآه في حياته.

يذكر أنه سمع الشيخ يقول في مجلس عزائها: «هي الآن عند خالقها. لقد ارتاحت». فخمَّن أن يكون هذا سبب جمالها المفاجئ، وتساءل في قرارة نفسه عما إذا كان ممكنًا لها بالفعل أن ترتاح وتتوقف يومًا عن الصراخ والضّرب.

تطلع السيد سعيد إلى ساعته، لقد تجاوزت التاسعة صباحًا. بدا له شعورًا غايةً في الغرابة أن يكون في مثل هذا الوقت من اليوم داخل المنزل، في يومٍ هو ليس يوم عطلة رسمية.

هنا تفطن، ولأول مرة منذ أن ركب الحافلة معها، إلى أنه قد تغيّب عن العمل. غير أن الأمر لم يفزعه على عكس ما يمكن توقعه، إنما أحس ببعض الضيق من أجل قطته التي سيتوجب عليها تدبُّر أمر طعامها لهذا اليوم، وتمنى أن تتذكّر تحذيره السابق لها، وتبقى بعيدةً عن البشر.

ظل جالسًا قبالتها هكذا قرابة نصف ساعة من الزمان، لا يفعل شيئًا سوى تأمل وجهها وجسدها، الوجه الذي لم يعد الآن يذكره بوجه أمه الميتة، والجسد الذي أثاره احتكاكه بأحد نهديه المكورين.

«لماذا ارتديت ثيابك؟» سألته بصوتٍ ناعس مغرق في الإثارة، بعد أن أهلَّ من بين شفتيها ما يشبه التثاؤب.

«أعني لماذا عدت لارتداء هذه الثياب؟ هل تنوي الخروج؟» استدركت وقد عدلت جلستها بعد أن رأت الارتباك على وجهه.

تمتم بشيء لم تفهمه، فقالت بعد زفرةٍ طويلة: «تسمح لي أن أسألك؟» حرّك رأسه بالإيجاب وهو يتمنّى في قرارة نفسه ألا يكون السؤال مرتبطًا بما يستحوذُ الآن على خياله في هذه اللحظة. سألته: «لماذا تتحدث هكذا طوال الوقت؟ هل أكل القط لسانك؟» فاجأه علمها بأن لديه قطة، وأراد أن يجيبها بأنها ليست حيوانًا مفترسًا لتقوم بمثل هذا الفعل الوحشي، لكن فمه لم يُسعفه على إخراج حتى هذه الجملة. ثمة ما كان يحبس الكلام في حلقه، شيء يفوق الارتباك والخوف، وقد بدأ يزعجه هذا الشيء، فهو يرغب الآن في التحدث إليها، لا سيما وقد غابت والدته الآن عن سمائه. ولا يستطيع الجزم كم سيطول غيابها قبل أن تعود لتستحوذ على جسد الفتاة وصوتها من جديد.

«إنه عيد ميلادي». قال أخيرًا بصوتٍ واضح.

لم تفهم إن كان بهذا يحاول تغيير الموضوع، أم أنه يجيبها عن سؤالها حول سبب ارتدائه لتلك الثياب، إذ لم تجد أي رابط بين الاحتفال بعيد الميلاد وارتداء بدلة شتوية في منتصف الصيف.

«حقًّا؟ كل عام وأنت بخير». قالت متظاهرةً بالبهجة، فاكتفى بهز رأسه وقد علت وجهه الكآبة.

«هل ترتدي البدلة هذه للاحتفال؟» بدأت تخاطبه الآن كما نخاطب الأطفال حين نحاول كسب ودَّهم.

«نعم». أجاب وكأنّه يعدّ في فمه الحروف قبل أن يطلقها في الهواء.

«لكن ألا تجدها سميكةً بعض الشيء في مثل هذا الطقس؟» سألته وهي تشد قميصها عن صدرها كأنها تحاول الخروج منه.

لم يفهم أنها مجرد إشارة للتعبير عن حاجة المرء للتخلص من ثيابه في مثل هذا الجحيم، فاستثارته تلك الحركة حتى لم يعد يرى أمامه سوى نهدين عاريين. وقد استعار خياله هنا

نهدي ممثلة البورنو في الصورة العارية الوحيدة التي رآها في مراهقته.

إن تأجج شهوته المفاجئ والذي تأخر ما يقارب الثلاثين عامًا منذ بلوغه، جعله يشعر بالهلع، فانتفض واقفًا بكل عزمه كالممسوس، ناسيًا أمرَ ساقه المصابة، وما إن وقفَ حتى غالبه الألم فعاد وارتمى على الكنبة.

لم تفهم شيئًا من كل ذلك المشهد المضحك، لكنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بالإشفاق عليه.

نهضت إليه، وجلست بجانبه، وراحت تتحسس ساقه. «آخذك إلى المستشفى؟».

إن الحنان المتدفق من صوتها ولمساتها، والذي لم يشعر ولو بنزرٍ يسيرٍ منه طوال حياته، بدَّد كل ما تفجر بداخله من شهوةٍ تجاهها، وأحلَّ مكانه شعورًا غريبًا آخر أشد سطوةً وخفةً في الوقت نفسه، يدعوه الناس في محاولةٍ لتفسيره أو ربما لتبريره، بشرارة الحُبّ.

توجّه إلى خانة سوق النهضة

«هل تحب لعب المونوبولي؟» سألته مشيرةً برأسها إلى حيث توجد اللعبة خلفهما، بينما يستعيد ذهنها صورة ألواح اللعب التي كست أرضية غرفته.

هز رأسه مؤكّدًا.

«لقد كانت إحدى ألعابي المفضلة في بداية مراهقتي. كنت ألعبها مع أختيَّ». قالت محاولةً كسر المزيد من جليده. ثم أضافت ساهمةً: «كانتا أصغر مني، لذا كنت أستأثر بإدارة البنك في كل مرة مستغلةً سلطة الأخت الكبرى». صمتت برهةً بانتظار تعليقه.

«وأنت؟ متى لعبتها أول مرة؟» سألته.

لا يوجد في قاموس ذاكرته شيء يسمى أول مرة، إن كل شيء يمارسه في حياته كان قد وجد نفسه عليه هكذا، كما يجد الإنسان نفسه على ديانته واسمه. لذا فقد وجد نفسه حائرًا أمام هذا السؤال.

«لا أتذكر». قال عابثًا بالزر في كم قميصه.

«أتعلم ما الذي تعنيه كلمة مونوبولي؟» سألته وقد بدأ اليأس يتملكها من قدرتها على فك عقدة ارتباكه.

هز رأسه نافيًا، وقال: «لا»، ثم غمغم مبررًا: «لم أفكر في هذا من قبل».

ها هي العقدة بدأت تتراخى. فكرت.

«إنها كلمة إنجليزية تعني: الاحتكار، وهو مصطلح اقتصادي يعني: الممارسة التي..»

«أجل.. أعرف ما هو الاحتكار؛ درسناه في الجامعة».

«أوه حقًّا؟ وما هي دراستك؟» سألته وهي سعيدة بطرف الخيط الذي توهمت إمساكَه.

«كلية اقتصاد قسم محاسبة». أجاب هنا بشكل آلي كمن يعبئ استمارة في دائرة رسمية.

«جميل!» وأضافت بعد بُرهةٍ صغيرة كأنها تخشى أن يغوص في الصمت وتُضيعه من جديد: «أنا خريجة هندسة صناعية». لكنه لم يُبدِ أي اهتمام.

«وأين تعمل؟» سألته دون أن تيأس.

«في مصنع النسيج». أجاب بنفس الطريقة الآلية.

«أليس هذا في مجمع الصناعة حيث التقينا؟» سألته مفكرةً في الأمر، فأومأ أن بلى.

«هل كنت هناك للالتحاق بعملك؟» سألته من جديد وقد بدأت تتيقن مما خطر ببالها، فهز رأسه بالإيجاب.

«لكن لماذا لم تخبرني حينها؟ هل تغيبت عن عملك من أجلي؟» قالت باندهاش خالطه شعور بالحرج، فلم يجبها.

«لماذا إذن كنت جالسًا في موقف الحافلات؟» سألته بارتياب وهي تأمل أن يعجزَ عن الرد فتتأكد من كذبه. كان ليريحها هي وضميرها أن يكون كاذبًا وإنْ كان ذلك ينطوي على إمكانية فقدها مأواها هذه الليلة. المُهم ألا يكون صادقًا بالفعل. ما كانت تستطيعُ تحمّل استصغارها لنفسها وهي تنظرُ إلى كلّ ما سبق على ضوء هذا المُعطى الجديد. أنْ تكون السّبب في إحراج الرجل والتسبب له في مشاكل في العمل هو أكثر مما تستطيع التعامل معه الآن.

«وصلتُ في وقت مبكر، فجلست أنتظر بدء الدوام، ثم أتيتِ».

لم يبدُ عليه الاستياء، كما أنه بدا صادقًا جدًّا.

«اللعنة عليَّ! لمَ فعلتَ هذا؟ هل أحرجتك؟».

«لا». أجاب بعد برهة من الصمت، وكان يود لو بوسعه أن يقول: بل أخفتني.

«أنا آسفة.. آسفة حقًّا. لكنني لم أتوقع أبدًا.. أعني لقد كنتَ جالسًا هناك؛ ظننتك تنتظر الحافلة. أنت تفهمني.. أليس كذلك؟».

إن رجلًا مثله، وبرغم بلادة مشاعره البادية بشكلٍ جليٍّ على سلوكه تجاه الناس، فإنه لا يملك القدرة على إخفاء أي شعور ينتابه، أيًّا كان ذلك الشعور، ومهما كان حجمه، وبصرف النظر عما إذا كان قد مر به من قبل في لحظاته الشعورية النادرة، أو كان جديدًا عليه كل الجِدة. وبسبب هذا، ومن غير وعيٍ منه، كان يخاف أولئك الذين يبدون واثقين على الدوام بأنفسهم، أولئك الذين يمتلكون ثباتًا انفعاليًّا عاليًا يمكّنهم من إخفاء مشاعرهم كما يُخفي المرء سلاحًا وراء ظهره. لذا وعلى النقيض من ذاك، فقد أشعره ارتباكها بارتياحٍ شديد.

«ما اسمكِ؟» سألها وقد تحرر من ارتباكه بشكلٍ نهائي.

استبشرت لسؤاله، إذ كانت قد فقدت الأمل تمامًا في أن يُبادر بالحديث. وإنْ كانت في مكانٍ سحيق من وعيها قد بدأت تخاف من سلوكه المضطرب وغرابة شخصيته، وما قد يترتب على ذلك من خطر عليها.

«ميم». أجابته باسمةً، وقد قررت أن تلعب معه لعبة تخمين الأسماء بأن أعطته أول حرف منه.

«ميم». كرر وراءها.

«أجل، ميم!» وانتظرت أن يشرع بطرح تخميناته.

«ماذا؟» قالت بعد أن طال انتظارها.

«ماذا؟» أجابها.

«هل عرفت اسمي؟» سألته، فتعجب من سؤالها. لقد بدا له التحدث معها أصعب من أن تحتمله قدراته.

«أجل، لقد أخبرتني به من فورك.. اسمك ميم».

كانت ستطلق ضحكةً مدوية لكنها كتمتها حين بدا لها أنّه جاد في ما يقول. «أجل اسمي ميم». قالت مغالبةً ضحكتها وقد أعجبها اسمها الجديد.

توقعت أن يقوم الآن بدوره بتعريفها باسمه كما اعتادت من الناس، أو هكذا تأملت لتطمئن حقًّا من أنه بات يتصرف بشكل طبيعي. لكن هذا لم يحدث بطبيعة الحال.

«ميم». أعاد تكراره، لكن بشيءٍ من التروي وكأنه يختبر قوامه في فمه.

«هل أحببته؟» سألته وقد عادت الآن إلى مخاطبته كالأطفال. ويبدو أن لجوءها لمثل هذا الأسلوب في مخاطبته إنما كان تصرفًا لا إراديًّا منها لتوهم نفسها أن الذي أمامها ليس سوى طفل لا يمكنه إيذاؤها.

«لا أعلم». أجاب دون تردد، ثم أطرق يفكر في أمرٍ ما. «لكني كنت أحب اسم والدتي». قال في شرودٍ كمن يحدث نفسه.

«أوه هذا لطيف حقًّا! ما اسمها؟»

رفع وجهه وتطلع إليها، فامَّحت ابتسامتها في طرفة عين وعلا وجهها الوجوم فور أن رأت وجهه.

«ما الذي تريدينه مني؟» قال بينما يبتعد عنها، وكان هنا إنما يسأل والدته التي عادت إلى إقحام نفسها من جديد بينه وبين المرأة التي لم يزل يشعر تجاهها بذلك الشيء الفريد في قلبه.

«لا أريد شيئًا». أجابته بكثير من الخيبة وهي تراه يعود سيرته الأولى في غرابته بعد أن كانت قد بدأت بالارتياح إليه.

«هل تنوي الاحتفال مع أحد بعيد ميلادك؟» سألته بعد صمت، في محاولةٍ لاستعادته، فهز رأسه بالنفي.

«ما هي خطتك إذن؟» بدا له سؤالها هذا أصعب من أن يكون موجهًا إليه. هو لا يعرف الخطط، إنه يعيش هكذا بأبسط الوسائل الممكنة، دون حاجته إلى بذل أدنى مجهودٍ ذهني. إن دماغه يعمل فقط حين يكون جالسًا خلف مكتبه في قسم المحاسبة، فإذا ما انتهت ساعات العمل أعاد دماغه مع الآلة الحاسبة والأوراق إلى حقيبته. أما عادة احتفاله السنوي بعيد ميلاده فلم تكن نتيجة قراراتٍ وتخطيط، وإنما جاءت نتيجةً لاحتياج نفسي وجد نفسه مرغمًا على تلبيته، مثلما يجد المرء نفسه مرغمًا على التأوه إذا تألم.

«أعني، كيف اعتدت أن تحتفل؟» أعادت صياغة السؤال. وهي صياغة موفقة تناسب واقع حاله، فثمة نمطٌ وحيد بطقوسٍ ثابتة اعتاد تكرارها كل عام دون زيادة أو نقصان، ما جعل احتفاله بهذا اليوم أشبه بالشعائر الدينية.

تبدأ هذه الطقوس منذ صباح عيد ميلاده بارتدائه بدلةً رسمية، وعند حلول المساء يضع كعكةً رخيصة على طاولة الطعام بجانب الثلاجة في المطبخ يشعل فوقها تسع شموع، ويجلس يتأمل قناديله المضيئة في العتمة إلى أن تذوي وتنطفئ، فيحمل الكعكة ويلقيها في سلة القمامة دون أن يأكل منها لقمةً واحدة، ثم يخلع البدلة وينام.

«أرتدي بدلةً وأشتري كعكة». أجابها بعد تردد.

«هذا جميل! سأحتفل معك هذا العام، ويا سيدي أنا مَن سيشتري الكعكة». قالت بنبرةٍ ودودة، ونهضت من مكانها ومدت إليه يدها: «هيا تعالَ نشتري الكعكة!».

أحس بالهلع، إنها تُقحم نفسها في أكثر المناطق حميميةً لديه، كما تنوي العبث بشعائره! غير أن يده ارتمت باستسلام في يدها، فور أن رأى ما استراح إليه في عينيها.

في توكئه عليها هذه المرة بينما يهبطان الدرج، استطاع أن يشعر بما كان يفتقده طوال تلك السنين، وهو وجود كتف تسنده. وبدا له هذا الأمر أغلى ما يمكن للمرء أن يحظى به خلال حياته.

حين بلغا الطابق الأرضي، رأته يلتفت إلى خزانة البريد.

«هل تريد تفقُّد بريدك؟» سألته، فقال: «لا». بينما ينظر إلى طرف ورقة الرمز السري التي كانت لا تزال على حالها.

لقد تلقيتَ هديةً بمناسبة عيد ميلادك

تقعُ السوق على بعد نصف ساعةٍ من المشي رفقة شخص بساقٍ مصابة، وهي مسافة كان من شأنها أن تجعل السيد سعيد يثغو على قارعة الطريق من شدة الألم، غير أنه لم يشعر بأي وجع على الإطلاق، على الرغم من أن السيدة ميم لم تعره كتفها هذه المرة، وكان هذا بناءً على طلبه، إذ لم يشأ أن يعود إلى اشتهائها من جديد خصوصًا وقد صار الآن نهدها أكثر تكوّرا بعد أن حظي بتأمّله المتفحص وهي نائمة، وهو تجنبٌ لم يكن مبعثه الزهد والتعفف، فالزهد والتعفف إنما يجيئان بعد طول باعٍ في الاشتهاء، بينما كان هو حديث عهدٍ بهذا. لذا فإن اجتنابه ذاك إنما كان طمعًا منه في تأجيج ذلك الشعورالغامض الذي كان قد لاحظ بزوغه في صالة منزله في اللحظة التي تخلص فيها من شهوته.

إن انعدام شعور السيد سعيد بالألم في طريقهما إلى السوق كان مردُّه إلى أمرين اثنين: تأجج شرارة الحب، والشعور بالأمان. الأمان الذي لم يشعر به يومًا من الأيام خارج المنزل. لقد بدا له أن وجودها بجانبه أدى إلى ثبات مؤشر الخطر على الدرجة صفر، وهو أمر لم يحدث له أبدًا في أكثر الشوارع خلوًا من الناس، إذ كان مجرد احتمال وجود شخص واحد آخر على ظهر هذا الكوكب يعني دائمًا احتمال تعرضه للأذى.

إن الأمان الذي وفره وجودها بجانبه، جعله يسائل نفسه في ذهول: هل كان وجود امرأةٍ في حياتي كفيلًا بأن يجنبني كل هذه الآلام؟

في محلّ المخبوزات، اختارت له كعكةً جميلة مغطاةً بكريمة الشوكولا، وهو اختيار لم يمانعه رغم تعارضه مع طقوسه التي تقتضي أن تكون الكعكة بالكريما البيضاء.

بأصابعها الرقيقة شرعت في التقاط القطع المعدنية من حافظة نقودها واحدة تلو أخرى ووضعها على الكاونتر الزجاجي. في الظروف الاعتيادية كان لمرأى القطع النقدية أن يحيي فيه ذكرى ما حصل بالأمس حين داسَ بالخطأ على واحدةٍ وحصل لساقه ما حصل.

لكنّه وعوضًا عن ذلك، طرب لصوتِ ارتطامها بالزجاج كما لو أن مطرًا ينقرُ زجاجَ نافذةٍ في صباح شتوي رائق. استشعرت الفتاة حرجًا طفيفًا لأنها تدفع الثمن بهذه الفكّة التي بدا أنها جمعتها على مدار أيّام. لكنه لم يلاحظ شيئًا من ذلك إذ كان مأخوذًا بأصابعها.

اتجها فيما بعد إلى محلّ مختص في بيع زينة الأعياد.

«كم شمعة تلزمنا؟» سألته، فلم يفهم قصدها تمامًا.

«تسع». قال دون تردد، فضحكت متفاجئةً بامتلاكه حسًّا فكاهيًّا وإن بدا لها على قدرٍ من الرداءة.

«لا، لا. تبدو أكبر قليلًا! هيا قل، لا تخف، لن أخبر أحدًا».

ازدادت حيرته، إذ لا يعلم ما هو العدد الذي عليه اختياره دون أن يثير ضحكها.

«اختاري أنتِ». قال مستسلمًا، فظنته يدفعُ بها إلى تخمين عُمره.

«مممم خمسة وثلاثون؟» قالت متفرسةً وجهه، فهز رأسه هزةً مبهمة.

«ماذا؟ أصبت؟.. أخطأت؟» قالت وقد ازدادت حماستها. لكنه عاد إلى هز رأسه بحيرة ثم قال: «هذا عدد كبير على كعكةٍ واحدة». بدت لها هذه الدعابة أذكى من أن تكتفي إزاءها بالضحك، فقالت بإعجاب: «أنت غير معقول!»

ندّت عن شفتيه ابتسامة حلوة، وكانت تلك أول مرة تراه فيها يبتسم، وهالها كيف بإمكان حركةٍ صغيرة كالابتسامة أن تُغيّر ملامح وجهٍ وهالةَ جسدٍ بأكمله.

«حسنٌ، كما تريد، لا تخبرني». قالت وهي لا تزال مأخوذةً بإشراقة وجهه المباغتة.
«سنعتمدُ الإجابة الأولى: تسع شموع».

في طريق عودتهما من السوق، وعلى عكس طريق الذهاب الذي قطعاه في صمت، راحت تحدثه قليلًا عن نفسها. كان حديثًا سطحيًا تكلّمت فيه عن تحاشيها للأسواق بسبب حادثة الضياع التي حصلت لها في طفولتها. حكت له كيف تاهت عن أمها ذات مرة في سوق الخضار، وكانت حينها في «إما في الثامنة وإما في التاسعة». ثم حسمت أمرها «لاهي التاسعة بلا شكّ». ودّ لو يخبرها أنّه أيضا تاه عن والدته وهو في التاسعة من عمره. الفرق بينهما أنها وجدتها أما هو فلم يفعل أبدًا، بل حتى وهي تتبدّى له في صوتها فإنما لتزيد ابتعادًا. لكنه لم يقل أيّ شيء، بل أخذ يمتصّ كلماتها ويتشبّع بها وكأنّ عمره الماضي كان ركضًا طويلًا في صحراء.

«أنا سعيد». قال لها حين صارا تحت منزله.

«أحقًّا؟ هذا خبر مفرح!».

تعجب بادئ الأمر من أن يكون اسم شخص ما خبرًا مفرحًا لشخصٍ آخر، لكنه سرعان ما فهم الالتباس الذي وقع لها، فبادر موضحًا: «لا. عنيت اسمي.. اسمي سعيد».

«أوه كم أنا غبية!» قالت ضاحكةً ضحكةً حلوة كان من شأنها أن تجعله سعيدًا بمعزل عن اسمه.

عندما دخلا مدخل العمارة، كانت ورقة الرمز السري في انتظاره فتوجه إلى خزانة البريد، وتبعته السيدة ميم.

أمسك بطرف الورقة لدفعها إلى داخل صندوق البريد، فسألته: «ما هذه؟»

«ورقة الرمز السري لفتح خزانة الطرود». أجابها دون أن ينزعج من فضولها.

«هل هي هدية عيد ميلادك؟» سألته باندفاع صبياني.

هنا، سحب الورقة من صندوق البريد بدل أن يدفعها.

«أظن ذلك». قال وهو يمسحُ بعينيه الرمز السري على الورقة ويديرُ عجلات القفل.

«ما هذا؟» سألته مستغربةً حين أخرج الصندوق الخشبي الذي لا يشبه عُلب الهدايا، فاكتفى بهز رأسه ومطّ شفتيه.

«خذ أنت هذا الكيس، وسأحمل أنا الصندوق والكعكة». اقترحت عليه، وصعدا إلى الشقة.

رغم ثقل حملها، فإنها استطاعت -مدفوعةً بالفضول- أن تقرأ الملصق البريدي على الصندوق بينما كانا يصعدان الدرج، فلاحظت أن الاسم في خانة المرسَل إليه لم يكن «سعيد»، ثم تأكدت شكوكها حين بلغا باب شقته، إذ كان يحمل رقمًا مغايرًا للرقم الذي يحمله صندوق البريد الذي استل منه السيد سعيد ورقة الرمز السري. لماذا يسطو على بريد جيرانه؟ ما أخافها هو إقدامه على الأمر بسلاسة؛ لم ترتبك يدُه لحظةً وهو يفتح الصندوق. هنا بدأ الخوف يتسلل إلى قلبها من جديد: أيعقل أن تكون هذه البراءة التي ترقى إلى السذاجة في بعض الأحيان ليست سوى قناع يرتديه لاستدارج ضحاياه؟ لكنه لم يستدرجني من الأساس، أنا من التجأت إليه بل فرضت نفسي عليه. ثم إن أكثر المجرمين براعةً بالتضليل وأشدهم دهاءً لن يتمكن من اصطناع ذلك البريق الطفولي الدائم في عينيه.

وضعت الصندوق والكعكة على طاولة المونوبولي فور أن دخلا الشقة، وحذا هو حذوها فوضع كيس الزينة جوارهما.

أجالت عينيها في الصالة من جديد، لا استكشافًا كما في المرة الأولى، بل هذه المرة بحثًا عن أية إشارة خطر تُعجّل من أخذها قرار الهرب.

«ألا تملك تلفازًا؟» سألته بارتياب.

«لا». أجابها ببساطة.

كانت ستسأله مكملةً استجوابها: بماذا تتسلى إذن خلال اليوم؟ لكن رقعة المونوبولي أجابتها قبل أن تسأل.

تفرست عينيه للتحقق من أصالة بريقهما، فأربكته نظرتها الحادة التي لم يفهم معناها.

«ألن تفتح هديتك؟» سألته فجأةً، واضعةً يدها على الصندوق.

تقدّم خطوتين إلى الأمام

«سأحتاج إلى سكين». قال السيد سعيد بعد أن أطال التمحيص في الصندوق. كان يفكّر في تلك الأثناء بإخبارها بالحقيقة. لكن الحقيقة هي الفخّ الذي نصبه له الكبار في طفولته. قلِ الحقيقة يا سعيد ولن نعاقبك. ثم فورَ أن تخرج من فمه تنهال عليه الصّفعات. هل ستفعلُ ما فعلته معه والدته؟ لكنه الآن لا يريدُ توقع البلاء ولا تجنّب وقوعه. يريدُ فقط لو يستمرّ عيد ميلاده للأبد. لا مانع لديه أن يكبر كلّ يومٍ سنةً كاملة، إن كان ذلك سيضمن بقاءها معه.

«ولماذا السكين؟» قالت بخوف، وقوست ظهرها دافعةً وجهها إلى الأمام كما تفعل القطط عند الشعور بالخطر.

إنها خائفة منه! لقد أحس بهذا، وقد هاله هذا الشعور. لقد اعتاد أن يخاف هو من الناس وأن يشعر الناس بخوفه منهم، ولم يصدف ولو لمرةٍ واحدة في حياته أن خاف منه أحد.

«لأقطع هذه الشرائط». قال وهو يُشير بأصابع مضطربة إلى الشرائط البلاستيكية التي تلفّ الصندوق، محاولا طمأنتها، أو ربّما طمأنة نفسه.

ألقت نظرةً سريعة على الصندوق. معه حق؛ ثمة شرائط تحتاج إلى سكين لقطعها. لكن هذا لم يكن كافيًا لنزع الخوف من قلبها.

«لماذا كذبتَ عليَّ؟» قالت وقد وجدت أن المواجهة هي السبيل الوحيد لاكتشاف حقيقته وحسم المسألة.

«كذبتُ في ماذا؟» أجاب بصوتٍ راجف، إذ تمثلت والدته أمامه فور أن وجد نفسه مُقحمًا في هذه المواجهة.

«بأمر الصندوق. لمَ ادعيت أنه لك؟» قالت وأدارت ظهرها تجاه باب البيت وقد عقدت العزم على المغادرة.

«لقد ظننت أن هذا سيسعدك». قال محاولًا حشر رؤوس أصابعه الدقيقة بين الشرائط وخشب الصندوق.

التفتت إليه، فصدَّقت قلبها فور أن رأت انكسار الطفل في عينيه. اقتربت منه، طوَّقته بذراعيها وضمته بحنانٍ إليها. صدّقته، لقد أقدمَ على فعلةٍ ربما تجرّ عليه مشاكل أكبر حين تغيّب عن العمل فقط كي لا يردّ طلبها.

يا لك من طفلٍ مسكين! قالت في قلبها، وقد تملكها شعور عظيم باحتقار نفسها. أما هو، ومنذ اللحظة التي أخذته فيها بين ذراعيها، فقد أحس بانفتاح نافذة تطل على حياةٍ ثانية، حياة لا تشبه تلك التي عرفها في شيء، ولا ينبغي للمرء أن يعيش في سواها.

«هذا الصندوق لك. سنفتحه معًا بعد أن نطفئ الشموع». همست في أذنه، وحررته من بين ذراعيها مثلما نطلق للسماء عصفورًا من بين كفينا بعد تعافيه.

«ألستِ جائعة؟» سألها بعد أن جلسا قليلًا صامتين على الكنبتين.

«بلى، جائعة جدًّا!.. هل تجيد الطهو؟».

«لا أعلم. لكنني أطهو لنفسي كل يوم».

«ماذا لديك؟».

«تحبين الإسباجيتي؟».

«يمي! بصلصة الطماطم؟».

«أجل».

«بالطبع أحبها! وأحب نفسي بشاربين» قالت باسمةً، فابتسم لابتسامتها دون أن يفهم ما عنته بموضوع الشاربين.

«حسنٌ، سأذهب لتحضيرها». قال ونهض من مكانه.

«لديك بيجامة إضافية؟» سألته، ثم أضافت مبررةً طلبها قبل أن يجيب: «غدًا لديَّ مقابلة تقدم إلى العمل كما تعلم، ولا أريد المجازفة بخسارة الوظيفة بسبب بقعة صلصة طماطم على ثيابي».

«نعم لديَّ». واستدرك: «لكنها رجالية». وكأنه يدفعها إلى العدول عن استعارة بيجامته، إذ بدا له غريبًا جدًّا أن يرتدي أحدٌ ما شيئًا من ملابسه.

«أعلم هذا. المهم ألا تكون شتوية!» قالت ضاحكةً، بينما تنهض. «هيا تعالَ أعطني إياها».

حين رآها تدخل عليه المطبخ ببيجامته المقلمة، وقد عقدت الآن شعرها الأسود الناعم وراء رأسها فبدا له وجهها أكثر إشراقًا وقربًا، أحس كما لو أن روحه قد انسكبت في ذلك الجسد النسائي الغزير.

أعاد نظره إلى سطح العمل حيث كان منشغلًا بتقطيع البصل، وقد تملكته أحاسيس مضطربة.

«هل أساعدك في شيء؟» سألته وقد صارت الآن وراء ظهره تمامًا، فشعر بنسمة هواء أرعشته بدت آتيةً من تلك الحياة الثانية.

«لا. شكرًا». قال بعد تردد.

«طيّب، سأجلس في الصالة. إن احتجت إليَّ نادني». وتوجهت نحو باب المطبخ.

«ميم». ناداها بصوتٍ لا يشبه صوته الذي اعتاده، صوتٍ خارج من أعماقه حيث كان يظنه مكانًا خِلوًا من الحياة كقمرٍ بعيد.

«ها.. تريد شيئًا؟» أجابت وقد حرك ذلك النداء شيئًا بداخلها.

ظل صامتًا لبرهة. لم ينادها راغبًا في أيّ شيء. إنما فقط امتلأ بها، ففاضَ اسمها من جسده وكان لا بُدّ أن يخرج من فمه.

«يمكنكِ غلي الماء لسلق المكرونة». قال أخيرًا وقد استردّ صوته القديم.

لم يكن طبق الإسباجيتي الذي أعدَّه سيئًا كما توقعته، لكنه لم يكن لذيذًا على أية حال، إذ كانت صلصة الطماطم أخف مما يجب، ومع هذا كانت سميكةً بما يكفي لرسم شارب أحمر تحت أنفها، جعل السيد سعيد يضحك وقد فهم الآن ما قصدته حين قالت أحب نفسي بشاربين. غير أن ضحكته قد أشعرتها بالحزن، إذ بدا جليًّا أنها ضحكة رجل لم يعتد على الضحك.

اِذهب للتنزه في حديقة العمال

بينما كانت السيدة ميم تعيد رقعة المونوبولي إلى الطاولة التي تناولا عليها طعام الغداء، داست خطأً على مُجسَّم فندق لم تنتبه وهي توقعه حين كانت تجهز الطاولة لتناول الطعام. كانت الوخزة مؤلمةً جدًّا ما جعلها ترمي الرقعة من بين يديها، فتناثرت على الأرض كل البطاقات والمنازل والفنادق المصفوفة على الرقعة.

«أنتِ بخير؟» بادر إلى سؤالها على إثر صرخة الألم التي أصدرتها. وحين طمأنته، لمَّ عن الأرض كل ما تناثر ومدَّ الرقعة على الطاولة، وفي وقتٍ قصير استطاع أن يعيد كل شيء إلى مكانه السابق.

«أرجو المعذرة، كان عليَّ أن أكون أكثر انتباهًا». قالت بكثير من الجدية وكأنها تعتذر لا فقط على ما حصل فورًا، بل وكأنها تُقدّم خلاصةً عن حياتها كلّها.

«لا عليكِ». أجابها وهو ينهي ترتيب الرقعة، بإعادة رمز المكواة إلى خانة المواقف المجّانية.

«ما يزال الوقت مبكرًا على إقامة حفل عيد ميلادك. ما الذي تقترح فعله إلى ذلك الحين؟» قالت بينما يشربان القهوة التي أعدتها بنفسها.

كانت حين عانقته قبل الغداء قد عقدت العزم في قرارة نفسها على إسعاده في ما تبقى من اليوم، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن الطريقة المثلى لفعل ذلك، إذ إن شخصيته لا تزال مستغلقةً عليها رغم بساطتها، وهو شيء يجعل المرء دائم التردد حيال كل تصرف يقوم به تجاه من هم بمثل شخصيته.

«هل تحبين الحدائق؟» سألها، فأجابت على الفور: «أجل أحبها بالطبع. نذهب إلى الحديقة؟».

ربما لو خُير السيد سعيد بين أن يسكن قصرًا أو أن يعيش في حديقة لاختار الحديقة دون تردد. إن حبه للحدائق وتعلقه بها يبدو دخيلًا على شخصيته. ثمة ما يجذبه إلى الحدائق غير أشجارها وزهورها ونوافيرها. شيء خفي مبهم لا يحمل اسمًا وليس له وجود مادي، ومع هذا فهو موجود فقط داخل الحدائق.

إن رغبته في الذهاب معها إلى الحديقة الآن إنما جاءت نتيجة الشعور بالأمان الذي أحسه معها حين رافقته إلى السوق، وهو تمامًا ما كان ينقصه ليعود إلى زيارة الحدائق من جديد بعد انقطاع دام سنواتٍ طويلة بسبب ما كان يتعرض له من ضرب فيها أكثر من سواها من الأماكن على طول المدينة وعرضها. وكان آخر هذه الحوادث حين كان جالسًا في حديقة العمال فوق السور الحجري الخفيض المحيط بالنافورة، فإذا برجل مع زوجته يتقدمان إليه.

«هلا سمحت بتصويرنا أيها السيد؟» قال له الرجل بينما يمد إليه آلة التصوير. تناولها السيد سعيد، قلّبها بين يديه بارتباك جاهلًا كيف تعمل.

«قف هناك لو سمحت، ونحن سنقف هنا أمام النافورة». قال الرجل، فوقف السيد سعيد حيث أشار الرجل.

عاد إلى تقليب آلة التصوير بين يديه، ثبتها على عينه وظل يحدق إلى الزوجين عبرالعدسة، دون أن يعرف الخطوة التالية التي يتوجب عليه القيام بها.

«هيه! هل انتهيت؟» قال الرجل بضيق مُتوجّهًا نحوه تاركًا زوجته خلفه.

«هل صورتنا؟» سأل الرجل بينما ينتزعُ منه آلة التصوير، فهز السيد سعيد رأسه بالنفي.

«ما الذي كنت تفعله إذن كل هذا الوقت؟» قال الرجل بينما تغلي الدماء في وجهه. «هل كنت تتفرس جسد زوجتي من خلف العدسة؟» ودونَ أن يمهله ليردّ انهال باللكمات على

وجهه إلى أن أرداه أرضًا، لكن هذا لم يشفِ غليله منه، فرفعه عن الأرض وحمله على كتفه وألقاه في حوض النافورة وسط تهليل الجمهور وابتهاج زوجته.

«سنذهب إلى حديقة العمال». قال السيد سعيد للسيدة ميم وقد عبّ رئتيه بالهواء كما يفعلُ الخارج فورًا من سجن.

«العُمّال؟ أهي قريبة من مجمع الصناعة؟» هزّ رأسه بالإيجاب. «لكنها بعيدة، لن تستطيع المشي كل هذه المسافة».

«سنركب الحافلة». أجابها.

قبل أن يغادر المنزل، أخذ من حقيبته الجلدية حافظة الطعام.

«ما هذا؟» سألته.

«طعام قطتي». أجاب وكأنها تعرفُ بأمر قطّته ولا يفعل الآن سوى تذكيرها.

«ألديك قطة؟!».

حين نزلا في موقف المصانع، اقترحت عليه أن تسبقه إلى الحديقة وتنتظره عند النافورة الكبيرة ريثما يُدخل الطعام إلى قطته.

إنها المرة الأولى التي يقصدُ فيها المصنع خارج أوقات العمل، ما جعله يشعر بالخوف قليلًا إذ أحس بأنه يقوم بشيء غير قانوني.

سأنهي كلّ شيء بسرعة؛ لن يلاحظ أحد وجودي. حدَّث نفسه بينما يعرج مسرعًا عبر البوابة الرئيسية، قاصدًا المرآب.

لمح ثلاثة عمال يدخنون أمام بوابة المرآب. توارى عنهم مطالعًا ساعته. إنها الثالثة إلا ربع، ستنطلق الشاحنات بعد ربع ساعة ويغلق الحارس بعدها بوابة المرآب، وهو روتين يعرفه منذ كان عاملًا في المصنع. لذا قرر أن يظل مختبئًا إلى أن تغادر آخر الشاحنات، ليتسلل بعدها إلى الداخل فيسلم قطته الطعام ويسارع بالخروج قبل أن تُغلَق البوابة.

في هذه الأثناء كانت السيدة ميم جالسةً على مقعد خشبي قبالة النافورة الكبيرة. فكرت أن تشتري من أمام بوابة الحديقة شيئًا يتسليان بتناوله، وهو أمر كان من شأنه -على بساطته- أن يضفي على هذه النزهة شيئًا من البهجة الإضافية التي أحبت أن تمنحها للسيد سعيد ولنفسها على حد سواء. غير أن النقود التي تبقت لديها بعد ما أنفقته لأجل عيد ميلاده، بالكاد تكفيها للرجوع غدًا إلى مدينتها. هزّت كتفيها وكأنها تردّ على كلامٍ وجهّته إلى نفسها، وكان هذا الحديث حول النقصان. وكان ردّها: وما الجديد في ذلك؟!

إن الأمر في حكايتها مع الأشياء المنقوصة على الدوام، يشبه أن ترتقي سلمًا تحت شجرة مثمرة، لكنك لن تستطيع بلوغ أطيب ثمارها إلا إذا وطئت قدماك أعلى درجة في هذا السلم، فتجد نفسك مرغمًا على النزول بثمار لم تشتهها، لأن الدرجة الأعلى من السلم هي الدرجة الوحيدة المفقودة من بين كل درجاته.

كانت السيدة ميم قد بدأت استقلالها المادي في سن مبكرة من عمرها، وذلك بسبب زواج والدها بامرأة أخرى ما جعل أمها تصر على الطلاق. «دع البنات لي ولا أريد منك قرشًا واحدًا». قالت أمها وهي تعرف جيدًا كيف تحمله على تطليقها، وبالفعل وجد الرجل العرض مغريًا فطلقها دونما إبطاء، تاركًا نفقة ثلاث طفلات على عاتق الأم. صحيحٌ أن وظيفة الأمّ كانت تكفي مصاريف البنات، لكنها لم تصمد لوقتٍ طويل بعد أن تضاعفت المسؤوليات بازدياد سنوات عمرهنّ.

حين كانت السيدة ميم وهي صغيرةٌ تقبّل النرد قبل أن ترميه على رقعة المونوبولي، فليس استجلابًا للحظّ، بقدر ما كانت تتمنى أن تحصلَ معجزةٌ ما، فتتحوّل كل الأوراق النقدية في اللعبة إلى مالٍ حقيقيّ، وتستحيل صكوك البيوت إلى واحدةٍ تستطيعُ أن تُشهرها في

وجهِ صاحب البيت. لكن ذلك لم يتحقق أبدًا. ما جعل السيدة ميم تعمل وهي طالبة في المدرسة، إذ كانت أكبر أخواتها وأكثرهن قدرةً على التوفيق بين الدراسة والعمل.

لم تمانع الأم تزويج بناتها مبكرًا للتخفف من عبئهن، فزوجت الصغيرتين فور حصول كل منهما على الثانوية العامة والعريس المناسب. على العكس منهما، كانت السيدة ميم مصدرَ رزقٍ وأنسٍ للأمّ التي تمسكت بها وألصقَتْها إلى جوارها.

أما السيدة ميم، فلم يكن عزوفها عن الزواج في ذلك الحين تضحيةً منها بسعادتها الشخصية في سبيل بقائها بجانب أمها، إنما كان نتيجة خوفها من الزواج في حد ذاته، بعد ما عايشته بنفسها من انهيار زواج والديها، الأمر الذي تدرك جيدًا أن تكراره معها سيعني انهيارها الشخصي، وهي التي لم يكن لها من صلابة أمها أي نصيب، ولا من قدرة أبيها على طيِّ سنين من العِشرة طيَّ صحيفةٍ فرغ من حل كلماتها المتقاطعة.

تخرجت السيدة ميم في كلية الهندسة الصناعية بدرجة امتياز، لكنها لم تعمل بشهادتها قط منذ تخرجها، وذلك بسبب خلو مدينتها من أي فرصة عمل لمهندس صناعي، ما وضعها أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن تعمل في وظيفةٍ أخرى بعيدة عن تخصصها وإما أن تنتقل إلى مدينة صناعية، لكن أمها كانت معارضةً بشدة مغادرة المدينة، ما جعلها تذهب مع الخيار الأول رغمًا عنها. أما الآن، وقد توفيت والدتها فإن أول قرار اتخذته بعد أن تعافت من حزنها هو أن تغادر المدينة إلى الأبد، وكأنها تنتقم بهذا لنفسها من أمها وأبيها والمدينة بأسرها التي لم تعد تستطيع رؤيتها على غير هيئة مقبرةٍ كبيرة للسعادة والأحلام. وكان عليها للقيام بهذه الخطوة أن تعثر أولًا على وظيفة في المدينة التي اختارتها لتكون مدينتها الجديدة، وقد عثرت بالفعل على هذه الوظيفة، إذ قرأت إعلانًا في الجريدة يطلب مهندسين للعمل في مصنع الألبان في مدينة المداخن السبع، دون اشتراط الخبرة، فاتصلت من فورها وأخذت موعدًا لإجراء المقابلة، وها هي الآن تنتظر قدوم صباح الغد للذهاب من جديد لإجراء المقابلة المؤجلة.

توجّه إلى المرآب

لم يكن قرار السيد سعيد بالاختباء ريثما تغادر الشاحنات وعمال التحميل منطلقًا من شعوره بعدم قانونية حضوره إلى المصنع خارج أوقات العمل وحسب، وإنما أيضًا لأن إحساس الأمان الذي منحه إياه وجود السيدة ميم بجانبه كان قد اختفى تمامًا فور أن تركته، ليرتفع مؤشر الخطر لديه إلى أقصى درجاته. لم يكن ليسمح بطبيعة الحال لأن يُعرِّض نفسه للضرب من أحد العمال أو السائقين في مثل هذا الوقت تحديدًا، وهو الذي يعيش هذا اليوم حلمًا لا يريد له أن ينتهي.

ما كان عليَّ أن أدخل وحدي؛ كان ينبغي أن أطلب منها مرافقتي. فكر وقد بدأ الآن ينتابه هاجس قوي بأن مكروهًا على وشك الوقوع.

غادرت أخيرًا آخر الشاحنات وغادر معها آخر العمال.

مشى بحذر اللصوص وخفتهم إلى أن صار داخل المرآب. عليه التسلل الآن إلى رصيف التحميل رقم «٩» حيث تسكن قطته. كان الحارس منشغلًا بأمرٍ ما داخل غرفته الزّجاجية، ما سهل عليه المهمة.

حين بلغ مسكن قطته لم يجدها هناك، فأخذ يبسبس بصوتٍ خفيض في البداية مخافة أن يسمعه الحارس رغم بعده. لكن القلق بدأ يتسلل إلى قلبه حين لم يعثر عليها رغم تمشيطه كامل الرصيف، فراح يرفع صوت بسبسته إلى أن غدت كافيةً لاستدعاء كل قطط المدينة، لكن من غير أن تظهر قطته.

لم ينتبه إلى بلوغه الرصيف رقم «١» في انشغاله بالبحث عنها إلا حين رأى الحارس يحدجه من خلف الزجاج بنظرةٍ شرسة، إذ كان ذلك الرصيف أقرب الأرصفة إلى غرفته.

تمسمر السيد سعيد في مكانه باستسلام تام، منتظرًا مصيره المشؤوم الذي بدا له محتمًا.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله متفحّصًا هندامه الذي لا يوحي بكونه سارقًا، فلم يسبق له أن رأى لصوصًا بربطة عنق إلا في صور حملات الترشح للانتخابات، أو البرامج الحوارية، ولا يبدو واحدًا منهم بأي حالٍ من الأحوال. بينما كان السيد سعيد في المقابل ينقِّل عينيه بين يديه السمينتين وكرشه الهائل.

«أبحث عن قطتي». أجابه بصوتٍ مرتجف، وأغمض عينيه استعدادًا للصفعة التي ستكون مدوخةً بلا شك.

«هل هي قطتك؟» قال الحارس ضاحكًا.

إنه لا ينوي صفعه! فتح عينيه وتطلع إلى وجه الرجل، وراح يهز رأسه دون توقف بينما يقول مؤكدًا: «نعم.. نعم قطتي.. إنها قطتي». لقد أحس أن نجاته من بطش يديه السمينتين مرهونةٌ حصرًا بهذه المعلومة ولهذا ارتأى أن يقدّمها إليه بسخاء إلى أن يكتفي.

«ستجدها هناك في الحاوية» قال الحارس، فظل السيد سعيد واقفًا على حاله غير فاهم لما عناه الرجل.

«هيا اذهب! ما الذي تنتظره؟» صاح عليه فعرج على ساقه إلى حيث أشار خارج المرآب.

لم يكن هناك سوى حاوية قمامة كبيرة، فلم يفهم كيف عرف الحارس أن قطته بداخلها، لامَ نفسه على غيابه الذي دفع بها إلى أن تبحثَ عمّا تسدّ به جوعها في حاوية الأزبال.

كانت الحاوية عاليةً بعض الشيء قياسًا بقامته، ما اضطره إلى الاستعانة بصندوقٍ وجده خلفها فوقف فوقه وأطل إلى داخل الحاوية.

حين وقعت عيناه على جثتها المدماة فوق أكياس القمامة تجمدت مقلتاه حتى أحس بثقلهما إلى درجة أنهما جعلتاه يميلُ قليلًا نحو الأسفل حتى كاد يسقط في الحاوية. لم

يستطع تصديق عينيه؛ لقد قتلوها! كانت عيناها نصف مفتوحتين وكان الدم يسيل من إحداهما وبدا له أنها قد اقتلعت من مكانها، كما استطاع أن يرى جرحًا عميقًا في عنقها الأبيض الذي كان بلون الحليب قبل أن يعكر صفوه سيل الدماء، وكان ذيلها الطويل الذي لطالما عانقت به ساقيه مقطوعًا في منتصفه.

ألقى إليها حافظة الطعام بيدٍ متشنجة، بينما كانت دماؤه تتدفق في عروقه كالسيل الجارف حتى كادت أن تتفجر من عينيه.

تناول الصندوق الخشبي الذي كان تحت قدميه، وركضَ بشراسة حيوانٍ مفترس نحو حارس المرآب الذي كان يهم بإغلاق البوابة، وانقض بالصندوق على رأسه قبل أن تطرف عيناه الذاهلتان فأرداه أرضًا من فوره، فجثا فوق صدره وراح يخبط وجهه بالصندوق إلى أن تهشمت أخشابه. حين لفظ الحارس آخر أنفاسه كان وجهه الغارق بالدماء قد غدا بلا معالم.

ملأ فمه بكرة لعابٍ كبيرة، وبصق عليه. نهض عن صدره، واجترح نفسًا عميقًا وشهيًّا كأول تنفس آدم على الأرض.

عاين ملابسه، كانت أكمام قميصه ملطخةً بدم الرجل، بينما سلمت بقية ملابسه. وبالطبع كانت يداه غارقتين بالدماء. دخل المرآب من جديد وغسل يديه جيدًا في مغسلة كانت بجانب غرفة الحارس، ثم ثنى أكمام قميصه عدة ثنياتٍ إلى أن توارت بقع الدماء بداخلها. وانطلق إلى حديقة العمال.

كان أول شيء لاحظته السيدة ميم فور أن رأته مقبلًا نحوها هو مشيته؛ لم يعد يعرج!

«ما الذي أخرك هكذا؟» سألته ناظرةً إلى كميه المثنيين، وعينيه الحادتين، ووقفته الواثقة أمامها منتصب القامة كالرمح. لقد بدا لها شخصًا آخر تمامًا حتى إنها كادت تسأله: من أنت؟

أكمِلِ اللعبة كلاعبٍ جديد

كان من المستحيل على من يرى السيد سعيد في الحديقة عصر ذلك اليوم أن يخطر بباله ولو للحظةٍ واحدة أن الماثل أمامه الآن كان قد أقدم قبل قليل على قتل رجل بتلك الطريقة الوحشية. لقد كان هادئًا تمامًا وكأنه قادم للتنزه بعد قسطٍ من النوم.

وكذلك كان من المستحيل على من عرف السيد سعيد جيدًا أن يصدق أن ذلك الرجل الجالس رفقة الشابة الجميلة في المقعد الخشبي المقابل للنافورة هو السيد سعيد نفسه، إذ كان يبدو بالفعل إنسانًا آخر دون الحاجة إلى رؤيته يقوم بأي شيء غريب، إذ كان يكفي أن تراه حينها كيف يجلس بارتياح وقد وضع ساقًا على ساق، فاردًا صدره، متطلعًا ببريق أقواس الماء المنبثقة فوق بركة النافورة، وقد علت وجهه ابتسامة مشرقة.

إن رجلًا بهذا المزاج الرائق وهذه الروح المفعمة بالحياة كان سيُسعد السيدة ميم، بلا ريب، قضاء وقتٍ معه، فضلًا عن المبيت في شقته. غير أنها لم تكن سعيدةً على الإطلاق وقد شهدت من فورها تحول رجل من شخص إلى نقيضه في أقل من نصف ساعة. الأمر الذي أعاد بثّ الريبة في قلبها وجعلها تشعر بعدم الارتياح لجلوسها بجانبه.

«أريد أن أتمشى قليلًا». قالت وهي تهمّ بالنهوض، فقام بدوره وهو يقول بصوتٍ واثق: «حسنٌ، فلنتمشَّ إذن».

«لوحدي». ردّت بنبرةٍ حاسمة.

«كما تشائين». قال مبتسمًا، وعاد إلى الجلوس.

تمنت لو أنه لم يمتثل لرغبتها بهذه السهولة، لو أنه سألها مثلًا ما الذي دهاكِ؟ لماذا لا تريدينني معك؟ أو أنه على الأقل قابل رغبتها الغريبة بشيء من إبداء الخيبة أو الحزن أو

حتى ارتباكه الذي اعتادته منه. لكانت ربما استعادت بعض ارتياحها إليه. لكن ها هو ذا يعزز ارتيابها وخوفها منه، ويوسع الهوة التي لم يكن لها أي وجود قبل ذهابه إلى قطته. تذكّرت أنها قرأت في إحدى المجلات التي كانت تحبّ أختها الصغرى مطالعتها «قبل أن تتزوجيه، اجلبي له قطة». كانت المقالة تقول ألا خوفَ من رجلٍ يرعى قطّة، من استطاع أن يعامل حيوانًا مُتطلّبا كالقطة بمحبّة ويحيطه بالعناية، يستطيعُ أن يحافظ على علاقتكما.
استدْعَت هذه المقالة في تلك اللحظة، لتُهدئ من روعها. وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ ما.

«هل أطعمت قطتك؟» عادت ورمتْ إليه هذا السؤال كما كانت ترمي قديمًا نردَ المونوبولي. لكن هذه المرة وهي تسرّ أمنيةً واحدة: أنْ تحصل المعجزة ويتحوّل إلى نسخته الأولى، رجلًا مرتبكًا خجولًا بكلمات قليلةٍ وثقةٍ بالنفس أقلّ.

«هل سنتمشى الآن معًا؟» سألها متطلعًا في عينيها بمحبةٍ استطاعت أن تراها من خلف بريق عينيه، ذلك البريق الطفولي الذي أحبته منذ أن رأته أول مرة، وهو الشيء الوحيد في شخصيته الذي بدا أنه لم يتغير.

كانت تحاول العثور بينما يتمشيان على صياغة مناسبة لسؤاله عن سر تغيره المفاجئ، إذ لم تكن قادرةً على تجاوز هذا الأمر رغم أنها حاولت فعل ذلك، وقد وجدت في مواجهته السبيل الأمثل والأقصر لإنهاء تلك المسألة والتخلص من عبئها، سواء بتجاوزها والاستمرار معه حتى صباح الغد، أو بتوديعه والذهاب إلى حال سبيلها، وكل ذلك سيكون مرهونًا بإجابته وشرح أسباب هذا التغير المريب. غير أن المشكلة الوحيدة بالنسبة إليها في مثل هذه المواجهة كانت تكمن في العثور على صيغة مباشرة تضمن الحصول على إجابة واضحة وحاسمة لكن دون أن تتسبب في الوقت نفسه بجرح مشاعره، إذْ صارت متيقنة منذ سؤالها عن الصندوق أنّ كل ظنّ سيئ منها تجاهه ينتهي بشعورها بالذنب.

لقد بدت لها تلك المعادلة للوهلة الأولى سهلة التحقيق، لكنها ما لبثت أن أدركت استحالتها، إذ لن يكون التمسك بشرط المباشرة ممكنًا دون التورط في سؤال جارح على شاكلة: أين

ذهب ذلك الرجل الساذج؟ أو ذلك الرجل الضعيف، أو ذلك الرجل المسكين، أو ذلك الرجل المرتبك والمربك في الوقت نفسه.

«كيف لم تعد تعرج؟» سألته أخيرًا.

على عكس ما توقعت، لم يربكه هذا السؤال، بل بدا متفاجئًا مفاجأة من تلقّى إطراء. «أحقًّا؟» قال بعفوية، وتوقف عن المشي وراح يجس بيده عضلة ساقه كمن يتحقق من صحة الأمر.

«أوه يا إلهي! كيف حدث هذا!» قال وقد بدا عليه اندهاشٌ حقيقي.

أخذت تتفرس وجهه وحركات يديه بينما يتفقّد جسده، لا لتقتفي دلائل كذبه، بل لأنها لوهلةٍ شعرت أنه يبحثُ عن شيءٍ أضاعه، وأمّلَتْ أن يكون هُو نفسه الشيء الذي تبحثُ هي عنه: الرجل الذي تركته عند بوابة مجمّع الصناعة.

عند مرورهما بملعب الأطفال سألته وهي تراقبهم ببهجةٍ لم تحاول إخفاءها: «هل تحب الأطفال؟»

«لا أحب صخبهم». قال في شرود.

هنا أضاءت حجرةٌ أخرى من حجرات ذاكرته المظلمة.

كان حينها في السابعة من عمره، وكان يمشي في طريقٍ أسفلتية لم تزل مبتلةً بماء الأمطار، وقد حمل حقيبته المدرسية على ظهره تحت سماءٍ بدت زرقاء صافية وكأن الغيم الماطر قد كُشط عنها دفعةً واحدة. كان الأولاد العائدون مثله من المدرسة يتجاوزونه راكضين نحو وجهةٍ واحدة، حيث تجمع العشرات منهم حول شيءٍ لم يتبيّنه بعد.

حين بلغ مجمَعَهُم وجد الأولاد يتقافزون ويتراشقون الماء في بركةٍ هائلة كوَّنتها الأمطار وسط الطريق. كان ذلك أكبر مسطحٍ مائي يراه حتى الآن. ظل واقفًا على مسافةٍ بعيدة

وقد أهابه الاقتراب من الأولاد الذين بدوا له في صخبهم وهيجانهم كحيواناتٍ صغيرة شرسة. كان يخطو خطوتين إلى الأمام نحوهم ثم يجفل ويتراجع. لقد تمنى لو أن خطبًا ما يميتهم جميعًا كي يتمكن من بلوغ تلك البركة واللهو بمائها مثلما يلهون.

انتبذ جانب الطريق وعبره مسرعًا إلى أن تجاوز البركة، وحين صارت وراء ظهره التفت إليها ملقيًا عليها نظرة حسرة.

حين صار على مقربةٍ من المنزل عثر على بركةٍ صغيرة بحجم طاولة طعام مدورة، ركض إليها وراح يقلد ما كان يفعله الأولاد في تلك البركة الكبيرة، من قفز وركل وتخبيطٍ بالقدمين، بل وصيحات صارخة، إلى أن أترع بنطاله بالماء.

عندما انتهى من لهوه، كان الرضا يغمر قلبه. وقبل أن يغادر بركته ألقى نظرةً أخيرة على انعكاس صورته على صفحتها وقد ضمت وراءه زرقة السماء، ففرد ذراعيه على جانبيه وراح يدور حول نفسه وسط البركة مطالعًا صورته فبدا وكأنه يطير في أعالي السماء.

«سعيد!» رعد صوتٌ مرعب من فوقه أرجف أوصاله وأرداه أرضًا من أعالي نشوته. نظر إلى الشرفة، كانت والدته مطلةً عليه بوجهها المتجهم الساخط، وتشير متوعدةً بيديها الغاضبتين.

بعد أن صفعته على وجهه وكل رقعةٍ في جسده وهي تخلع عنه بنطاله المُترع بالماء، أوقفته في الشرفة عاريًا كي تعاقبه على فعلته، وتركته هكذا إلى أن بال على نفسه من شدة البرد والبكاء.

بعد أن ذرعا ممشى الحديقة طولًا وعرضًا اكتشفت السيدة ميم وجود شيء آخر غير بريق عينيه لم يزل على حاله ولم تشمله معجزة التحول، إنه صمته الدائم وعدم مبادرته بالتحدث. وهو اكتشاف أعاد إلى قلبها شيئًا من الطمأنينة.

ما الذي يهمك في شخصيته ما دمتِ ستفارقينه صباح الغد؟ راحت تحدث نفسها في محاولةٍ أخيرة منها لتجاوز الأمر. تخشين على نفسك منه بعد أن أخافكِ تحوله؟ ماذا لو كنت أنتِ سبب هذا التحول؟ ألم تعيدي إليه ضحكته التي بدت غائبة عنه منذ سنين؟ ألم تمنحيه فرصة الاحتفال بعيد ميلاده مع امرأةٍ جميلة بعد أن كان ينوي الاحتفال بمفرده؟ ألم تجلبي له الزينة والشموع والكعكة من أجل هذا الحفل بعد أن كان مقتصرًا على ارتداء تلك البدلة السميكة البائسة؟ فكيف لا يُبعث خلقًا جديدًا إذن بعد هذا كله؟

شعرَت كما لو أنّها بطاقة «فرصة» للاعب مونوبولي على وشك إعلان إفلاسه. جاءت لتمنحَهُ أرضًا يضعُ بثباتٍ قدمَه عليها كما تراهُ الآن يفعل.

مدت يدها وأمسكت بيده، فتطلَّع في عينيها، وابتسما معًا.

حجر النرد

بعد خروجهما من الحديقة، عرض عليها العودة إلى المنزل مشيًا على الأقدام. «سيستغرق ساعةً كاملة». قال منبهًا، لكنها ظلت متمسكةً بموافقتها.

كان الطريق إلى منزله سيرًا على الأقدام هو نفسه الذي تقطعه الحافلة بين مجمع الصناعة ومنزله. فبعد أن تجتاز الطريق المحاذي لحديقة العمال تمر بين مربعين سكنيين يمتدان على طول الطريق وصولًا إلى «جسر النهوض» الذي يحملك من فوق «نهر آجن» ليوصلك بعدها إلى القسم الشمالي من المدينة حيث يقع منزله.

على مدى سبعة وعشرين عامًا خلت، عاشها السيد سعيد في مدينة المداخن السبع بين الدراسة والعمل، كان هذا اليوم هو أول يوم يرى فيه المدينة على وجهها الحقيقي. وكأن ستارًا هائلًا كان يحجبها عن عينيه أُزيح دُفعةً واحدة كما يُزاح ستار المسرح لحظة ابتداء العرض.

كان من شأن انفصاله عن المدينة كل تلك السنين أن يجعل كلًّا منهما للآخر كالسراب للصحراء، وجوده واقع وكذلك عدم وجوده، فهو موجود في ذاته وغير موجود خارج هذه الذات.

لفته التشابه الكبير بين المباني. وهي سمةٌ يسهل توقعها في المدن الصناعية التي تُعمَّر هكذا دفعةً واحدة بعد اكتمال نواتها الأولى، وهي المصانع ومساكن العمال. غير أن توقعًا بسيطًا مثل هذا لم يكن ليخطر ببال رجل مثل السيد سعيد، الذي كان غائبًا عن المعرفة غيابه عن الواقع. لذا فقد أدهشه هذا التشابه الذي يكاد يصل إلى حد التطابق، ما أحاله على الفور إلى تطابق أبنية المونوبولي، ففكر في أنه قد لا يكون سوى رمز من رموز اللعب، يُحرَّك وفق ما يمليه حجر النرد وقواعد اللعبة، في حركة دائرية لا نهائية.

تطلع إلى السماء فوقه، باحثًا عن وجوه اللاعبين.

«إلام تنظر؟» سألته.

«هل تفعلين الأشياء لأنك ترغبين في فعلها؟».

«تعني الأشياء التي يفعلها المرء كل يوم، أم التي لم نعتَد على فعلها؟».

«هذه وتلك».

«بعضها أفعله مضطرةً لحاجتي إلى فعله، وبعضها لأنني أحببت أن أفعله».

«وكيف تكونين متأكدة؟».

«متأكدة من ماذا؟».

«أنكِ تفعلين بعض الأشياء باختيارك».

«من خلال الشعور برغبتي في فعلها!».

«وكيف تتأكدين أن هذه الرغبة لم تُفرض عليكِ؟».

«ومن الذي سيفرضها؟» سألته مستغربةً، فعاد إلى صمته.

توقفا قليلًا لتأمل النهر حين بلغا منتصف جسر النهوض، وهو جسر كبير يحتوي على شارع بمسربين يمتد على جانبيه رصيفان عريضان صُفت عليهما مقاعد خشبية وانتشرت فيهما عربات الباعة المتجولين وأكشاك صغيرة تقدم الآيس كريم والبوشار وغزل البنات بالإضافة إلى الوجبات الخفيفة.

كان لون النهر رماديًّا كظهر مرآة كفئت على وجهها.

كم يشبه الإنسان هذا النهر، فكرت السيدة ميم، إذ لا نرى منه على هذه المسافة غير سطحه الرمادي، وكلما اقتربنا بان لنا المخبوء تحت ذلك السطح.

هي لا تعلم حتى إن كانت قادرةً على رؤية سطح هذا الرجل الواقف بجانبها فضلًا عن رؤية المخبوء خلفه. إنه كصورة التلفاز المشوشة، عليك دائمًا أن تستعين بحدسك وتحليلك واستنتاجاتك لتُعين دماغك على استقبال أقرب صورة ممكنة إلى تلك المختبئة خلف ذلك التشويش.

لكنها وبرغم غموضه هذا وغرابته بل والتحول المفاجئ الذي طرأ على شخصيته، لا تستطيع أن تنكر انجذابها الكبير نحوه، وهو أمرٌ تجد نفسها الآن في تأمله عاجزةً عن تفسيره. لكن هذا الانجذاب على قوّته لم يكن وحده ما يحيرها، بل هذه الألفة الغريبة التي تشعرها تجاهه رغم أنها لم تعلم بوجوده في هذه الدنيا إلا منذ بضع ساعات. إنها لتشعر بنفسها معه وكأنها مع صديق قديم أو ربما حبيب أفنت العمر كله في وصاله. وهذا ما جعلها الآن على يقين بأن اختيارها له صباح اليوم لم يكن بمحض إرادتها.

أما هو، وبخلاف كل ما هو منطقي، لم يكن في لحظة شروده في النهر يعملُ التفكير في جريمته التي يبدو أنه تجاوزها كما يتجاوز المرء قتل ذبابةٍ أزعجته. لقد نسي الأمر تمامًا كما لو أنه لم يكن. لقد كان في لحظة شروده تلك يفكر في المرأة الواقفة بجانبه مثلما كانت تفكر به. لكنه لم يكن مثلها يفكر متعجبًا في انجذابه الكبير إليها ولا بالألفة الغريبة الطاغية، وإنما كان يفكر في أمر واحد، هو السبيل إلى استبقائها في حياته أبد الدهر.

توقفت عربة الآيس كريم على مقربةٍ منهما، فاشترى كوزين بنكهة الفانيلا دون سؤالها عن النكهة التي تفضل، وهو شيء لم يكن بسبب ارتباكه هذه المرة وإنما بسبب انعدام خبرته في مشاركة الناس الطعام.

بعد أن انتهت من تناول كوزها، لعقت شفتيها للتخلص مما علق فيهما من بقايا الآيس كريم، لكن لطخةً صغيرة ظلت عالقةً على شفتها العليا فمسحها بإصبعه، ولم يعلم أين يذهب بها

بعد ذلك فلعق إصبعه. لم تكن نكهة الآيس كريم في هذه اللحسة تشبه نكهته في الكوز الذي كان قد فرغ لتوه من تناوله، بل بدت نكهةً قادمة من تلك الحياة التي هبَّت عليه ريحها حين أخذته في منزله بين ذراعيها. فوجد شفتيه الآن تسعيان رغمًا عنه إلى شفتيها.

رموز اللعب

حين دخلا باب العمارة، وكان وقت الغروب، أبصرا رجلًا عجوزًا يتفقد الصندوق الذي سرقا منه ورقة الرمز السري وقد أراح عُكازه على الجدار، فسارعا بالصعود من دون الالتفات إليه.

«هل تعرفه؟» سألته السيدة ميم وهي تحاول التقاط أنفاسها بعد أن دخلا شقته.

«لا».

«لا أعني معرفةً شخصية، قصدت هل تعرف من هو؟ هل يعيش مع أسرته؟»

«لا أعرف شيئًا عنه».

«ألا تعرف جيرانك؟» كانت هنا تسأل الرجل الذي بادر من تلقاء نفسه قبل نصف ساعة بتقبيلها على جسر النهوض، ناسيةً أن ذلك الرجل ليس سوى نسخةٍ طارئة من رجلٍ شديد الخجل، يسكنه طفلٌ مرتبك.

«لا أعرف أحدًا منهم». أجاب بغضبٍ هذه المرة، وتوجه إلى طاولة المونوبولي وخبط على الطرد البريدي بانفعال بكلتا يديه: «هل تريدين أن أعيده لصاحبه؟».

لم تستطع منع نفسها من الابتسام، لقد بدا لها شديد الجاذبية وهو غاضب. حتى أنها وجدت غضبته هذه أشهى بكثير من قبلته التي كان واضحًا أنها قبلته الأولى.

«آسفة». قالت بينما تقترب منه، ورفعت يديه عن الصندوق. «بالطبع لن نعيد شيئًا». همست بعد أن طبعت قبلةً على يديه.

سحب يديه بهدوءٍ من تحت شفتيها دون أن ينظر إليها، وألقى بجسده على الكنبة. الكنبة الخاصّة به، لا تلك المواجهة للحائط، وكأنّه أراد أن يسبقها إليها قبل أن تستحوذ عليها كما فعلت صباحًا.

لا يزال غاضبًا، فكرت. هي لا تريد لأي شيء أن يعكر صفوه الآن بعد أن رأته أخيرًا رائق البال، بل وسعيدًا!

«أما زلت لا ترغب في اللعب؟» قالت وقد أغاثتها رقعة المونوبولي المفرودة أمامها بجانب الطرد.

التفت إليها من فوره؛ إنها تقرأ أفكاره! فالهاجس المتمثل في احتمال ألا يكون سوى رمز لعب في لعبة المونوبولي لم يزل متشبثًا بذهنه تشبث الخفاش اللزج بسقف كهفٍ معتم.

«لمَ المكواة؟» سألته بعد أن انتهى من توزيع النقود واختار كل منهما رمزه.

أضاءت من جديد حجرةٌ أخرى من الحجرات المظلمة في ذاكرته، فرأى والدته تقف فجرًا إلى طاولة الكيّ في غرفة المعيشة بينما تُسمع تكبيرات العيد الهادرة من مسجد الحي، وكان حينها في الثامنة من عمره. سمعها تسبُّ العيد وتلعنه كما يلعن المرء الشياطين. أوقفت المكواة على طرف الطاولة بعد أن انتهت من كيّ قميص والده ونفضتْهُ بحرصٍ متجهة نحو الخزانة لتُعلّقه بينما لا تزال تزبد وترغي.

توجه نحو طاولة الكيّ ووقف حيث كانت تقف والدته، فرد قميصه الجديد الذي سيرتديه بعد ساعات في صباح العيد، وأخذ يمرّر المكواة فوقه مقلدًا والدته، ويبدو أنه كان إذ ذاك يحاول مساعدتها، فإذا بكفها تهوي على عنقه ووجهه من خلف رأسه فهوى على الأرض ساحبًا بيده المكواة التي سارعت والدته إلى رفعها عن السجادة، وجثَمتْ فوقَ صدره وقد أشهرت المكواة في وجهه حتى ظن بأنها ستكويه بها، فراح يصرخ في هلع متوسلًا إياها بعينيه المتفجرتين بالدموع ألا تفعل.

«الخنزير كاد أن يحرق المنزل». قالت لوالده الذي وقف على باب غرفة النوم بعد أن أيقظه عويل ابنه، ونهضت من فوقه.

أعاد السيد سعيد رمز المكواة واختار بدلًا منه رمز الطاقية، وكانت هي قد اختارت لنفسها رمز الباخرة.

«لا فرق لديَّ». قال بصوتٍ واثق، وتناول حجري النرد ورماهما إلى الرقعة.

كان يلعب بكثير من الجدية وكأنه يباشر أعماله الحقيقية من بيع وشراء ورهن واستلام أجور ودفع ضرائب بالإضافة إلى مهام إدارة البنك.

«سأزورك لا تقلق». قالت تمازحه بعد أن توجه إلى السجن بأمر من بطاقة صندوق المجتمع. لم يفهم قصدها، إذ ظنها تعني زيارتها له بعد أن تودعه صباح الغد. أراد أن يرجوها بألا تغادر، وأن يخبرها كم تعلق بها.

«متى؟» سألها وقد اعتلت وجهه كآبة قاتمة.

«متى ماذا؟».

«ستزورينني». قال بمرارة، فانفجرت بالضحك.

«يا إلهي غير معقول! عنيت في السجن.. سأزورك في السجن!» وأشارت إلى خانة السجن حيث وضع رمزه.

حين سمع منها كلمة «السجن» تراءت في مخيلته صورة مشوشة لما بدا كمرآب المصنع.

احتفل بعيد ميلادك!

بعد ساعةٍ من اللعب قالت السيدة ميم متمطيةً: «حسنٌ، أظنني اكتفيت». وتثاءبت بينما تسأله: «كم الساعة في يدك؟».

«السابعة والنصف». أجابها، ورمى حجري النرد متابعًا اللعب رغم إعلانها الانسحاب.

«قهوة؟» سألته وهي تنهض، فهز رأسه موافقًا.

حين عادت من المطبخ حاملةً صينية القهوة وجدته لا يزال جالسًا إلى رقعة المونوبولي، فوضعت الصينية على طاولة الشاي بين الكنبتين وذهبت إليه لترى ما يفعله.

كان مطرقًا يتأمل الرقعة كما لو أنه يراها لأول مرة.

«ما الذي تفكر فيه؟» سألته من خلف ظهره.

«لم يكن عليَّ بناء ذلك الفندق». قال مشيرًا إلى فندق في أحد عقاراته.

«هل أنت جاد فيما تقول؟ إنها مجرد لعبة!» فهز رأسه بالنفي وكأنه يقول لا، ليست مجرد لعبة.

«هيا تعالَ، ستبرد القهوة».

ظل سارحًا في أفكاره بينما يشربان القهوة.

«أما زلت تفكر في ذلك الفندق؟» سألته متمنيةً أن يقول لا.

«لقد ارتكبتُ ذلك الخطأ لأنني لم أكن هذه المرة ألعب بمفردي».

«هل اعتدت حقًّا أن تلعبها بمفردك؟» بادرت إلى سؤاله، وقد كان هذا السؤال عالقًا بذهنها منذ أن رأت رقعته أول مرة ولاحظت فيها ما يشير إلى ذلك.

«وماذا في ذلك؟» وكان حقًّا متعجبًا من استغرابها.

«لكن كيف؟ إنها ليست مصممةً لشخص واحد!».

«وكيف عرفتِ؟».

«إنها أول وأبسط قواعدها!».

«ومن وضع هذه القواعد؟».

«مخترعها بالطبع».

«وهل جرب أن يلعبها بمفرده؟».

لم يبدُ لها أنه يمزح، أو حتى يجادل بكلام يراه فارغًا فقط لكي يغيظها. لقد كان يتحدث بقناعةٍ مطلقة.

«حسنٌ، لا أعلم إن كان قد فعل هذا، لكن بكل تأكيد لو كانت هذه القاعدة قابلةً للكسر، لتم إلغاؤها بكل بساطة منذ عشرات السنين».

«وها أنا ألعبها منذ سنين دون أية مشاكل، بل ومن غير ارتكاب خطأ واحد».

«عدم ارتكابنا الأخطاء ليس دليلًا بالضرورة على صواب أفعالنا». قالت بانفعال.

توقف هنا عن مجادلتها إذ شعر أن الأمر أتعبه، وتساءل في قرارة نفسه متعجبًا كيف في وسع زملائه في العمل الدخول في نقاشاتهم الطويلة تلك التي كانت تمتد أحيانًا لساعات.

«هل تتعامل مع حياتك بنفس الفهم؟» سألته محاولةً سبر المخبوء تحت سطح النهر.

أومأ برأسه غير فاهم ما الذي تعنيه.

«أعني هل تعيش حياتك منفردًا لتجنب الوقوع في الأخطاء؟»

وضع الفنجان من يده، وأطرق برهةً يفكر ثم قال متطلعًا في وجهها: «ماذا لو لم يكن القرار بأيدينا؟ ماذا لو لم نكن نحن اللاعبين؟ هل مرت عليكِ لعبة يعيش اللاعب داخلها؟ ألا يمكن أن نكون رموز اللعب؟».

«لا لسنا رموز لعب.. نحن اللاعبون، وسأثبت لك ذلك الآن». ونهضت من فورها وتوجهت إلى طاولة المونوبولي، وأخذت تقلّب بطاقات صندوق المجتمع إلى أن عثرت على البطاقة المنشودة، فحملتها وعادت إليه. وقفت قبالته وتلت عليه المكتوب فيها بنبرةٍ مرحة: «إنه عيد ميلادك. اجمع عشر دولارات من كل لاعب».

ابتسم كالكبار في بادئ الأمر، ثم راح يضحك مثل بقية الأطفال.

«أخبرني الآن أيها اللاعب المحظوظ، أما زلت ترغب في الاحتفال معي أم تفضل تجنب الأخطاء؟» سألته وقد جلست من جديد على الكنبة المقابلة.

«سأدخل لتبديل هذه الثياب. سنحتفل معًا». قال بينما ينهض، وتوجه إلى غرفته.

تخلّص أخيرًا من بنطال البدلة الشتوية، وارتدى واحدًا صيفيًّا لونه رمادي اختار له قميصًا أبيض وتخلى عن ربطة العنق.

نظر إلى نفسه في المرآة، لا يزال ثمة شيء أخير عليه التخلص منه.

حين عاد إلى الصالة كانت السيدة ميم واقفةً على الكرسي تُعلق الزينة، وقد أنزلت عن الطاولة رقعة المونوبولي وصندوق الطرد البريدي واضعةً مكانهما الكعكة بشموعها التسع

وطبقين صغيرين مع شوكتين وسكينٍ كبيرة.

«لماذا لم تنتظريني كي أساعدك؟» قال من خلف ظهرها، ولم يكن قد فهم بالطبع أنها كانت تسعى لمفاجأته.

«ألم يكن ممكنًا لك أن تتأخر لبعض الوقت بعد؟» قالت بشيءٍ من الخيبة، والتفتت إليه لتتابع توبيخه، لكن الكلام ظل عالقًا بحلقها حين رأته.

«حلقت شاربيك!» قالت أخيرًا وهي تبتسم تلك الابتسامة الحلوة التي رآها على محياها حين كان غاضبًا قبل قليل.

حين رأته في موقف الحافلات صباح اليوم لم تكن لتتخيل أن تقع في حبه ولو كان آخر رجال الكوكب. كما لم يتخيل هو بالمقابل أن يحظى بلحظة فرح واحدة في حياته كهذه التي يعيشها معها.

كانت قد مرت بتجارب حب سابقة، قليلة في كلّ الأحوال، لكنها حفرت جروحًا عميقةً في قلبها، منها ما كان بسبب الخذلان ومنها ما كان بسبب السلم ذي الدرجة المفقودة تحت الشجرة. لكنها هذه المرة تشعر بشيءٍ مختلف عن كل ما اختبرته سابقًا، فهي تحب الرجل الذي شهدت ولادته بنفسها، الرجل الذي بُعث خلقًا جديدًا على يديها. الرجل الذي بدا أنه كان دائمًا معها دون أن تشعر، وأنّ كل رجلٍ دخل حياتها كان عليه أن يتبخّر كي يتبقى هو وحده في القاع، وها هي تلتقطه الآن وتضعه في قلبها.

«تعالَ، هات كرسيك إلى هنا، سأريك شيئًا». قالت بعد أن تناظرا طويلًا عينا أحدهما إلى عيني الآخر، كلٌّ من فوق كرسيه على طرفي حائط النافذة المشرعة حيث علقا آخر حبال الزينة.

حمل كرسيه ووضعه حيث أشارت بجانب كرسيها.

«هيا اصعدا!» قالت ممسكةً بيده، فصعد إليها.

«أغمض عينيك الآن». قالت، ووضعت راحتها على عنقه مسندةً ذراعها إلى كتفه، والتقطت شفته السفلى بشفتيها المتقدتين، فوقع قلبه.

كان دمه يزداد اشتعالًا كلما لفحت فمَه حرارةُ أنفاسها في تنقُّل شفتيها بين شفتيه، إلى أن أحسَّ بسُكرٍ تامّ، لم يشأ أن يصحوَ منه.

كانت أنفاسُها الحارّة تدخل فمَه فتصعدُ إلى رأسهِ وتذيبُ النصال المغروزة في سنين طفولته، فلا يتبقّى منها سوى ما يُشبه ذرّات الرماد، تطيرُ تاركةً رأسه شاقّة طريقها عبر النافذة وتلمعُ في صفحة السماء على هيئة نجومٍ بعيدة، حول قرص القمر المطل عليهما من ليل المدينة.

نزلت عن كرسيها وقد أصحتها ضرورة التوقف عند هذا الحد.

«هيا هيئ نفسك لدينا احتفال». قالت بعد أن استعادت أنفاسها، وذهبت إلى الحمام، حيث تبولت واغتسلت وأعادت تسريح شعرها وعدلت مكياجها وتعطرت.

حين عادت إليه وجدته قد أطفأ ضوء الصالة وأشعل الشموع التسع فوق الكعكة وجلس إلى طاولة المونوبولي بانتظارها. سارعت إلى الجلوس قبالته، وتطلعت في عينيه، كان لامتزاج بريقهما مع انعكاس لهب الشموع وقع السحر في قلبها.

«حسنٌ». قالت بارتباك، «فلنحتفل!» وراحت تغني له، تمهيدًا للحظة المنشودة، لحظة إطفاء الشموع:

سنة حلوة يا سعيد..

سنة حلوة يا سعيد..

سنة حلوة، سنة حلوة، سنة حلوة يا سعيد.

«لقد قتلتُ اليوم رجلًا».

اذهب إلى السجن

غرفةٌ صغيرة مضاءة بالشموع، تتراءى في أركانها المعتمة أشباح أثاث بسيط وحوائط خضراء شاحبة، انتصبت تحت نافذتها الوحيدة طاولة خشبية صغيرة، وُضعت عليها كعكة مغطاة بكريما الشوكولا غُرست بتسع شموع، وجلس إليها رجلٌ وامرأة في صمتٍ بدا أزليًّا في هدأة الليل البهيم.

كان نفح الهواء من النافذة متقطعًا كاللهاث، فيُسمع كلما حك الستائرَ حسيسُ مشية خائف. بينما لهب الشموع يخبو ويعلو في انحناءٍ واستواء كالنائحات في مجالس العزاء.

«ماذا قلت؟» قالت أخيرًا دون أن ترفع عينيها عن الشموع.

لم يجبها، لكنها استطاعت أن تشعر باهتزاز جسده الذي راح يزداد اضطرابه إثر تصاعد بكائه المكتوم.

«قطتي. قتلوها.. قتلوا قطتي». قال بينما ينشج وقد ألقى بجبينه على الطاولة.

«من هم؟» سألته بصوتٍ مرتجف، وقد بدا لها جليًّا من صوته أن ذلك الرجل الذي صنعته بيديها قد تشظَّى طرفةَ عينٍ إلى الأبد.

زاد نواحه احتدامًا وتعالت شهقاته، فاشمأزت منه وطفح قلبها باحتقاره.

«من هم؟» صرخت بصوت والدته، وضربت على الطاولة بقبضتيها المتشنجتين. فتوقف في لحظةٍ عن بكائه، وأغمض عينيه.

كانت ثلاث شموع قد انطفأت حين رفع وجهه أخيرًا.

بدا لها وجهه الخائف على ضوء ما تبقى من الشموع ضئيلًا ناحلًا، وكأن العتمة عصرته بيديها الباردتين.

نهضت وأشعلت المصباح وعادت إلى الطاولة وراحت تطفئ الشموع الذابلة بنفخاتٍ مقتضبة كان يتلقاها كالبصق على وجهه. ثم جلست على كرسيها قبالته.

«ألن تتكلم؟» قالت، ففتح عينيه ورفع وجهه من إطراقته.

كانت يداها مبسوطتين على الطاولة. إنهما يدا والدته، بخاتمها الذهبي المجدول كعقدة المشنقة، وساعتها الجلدية السوداء التي كان يسمع دوران مسنناتها الصاخب حين كانت تقص شعره بمقص شوارب أبيه، وذراعيها النحيلتين المتبديتين عن شراايين خضراء كان يتقزز من هيئتها التي تشبه الطحالب في درس العلوم.

«تكلم!» صرخت، فأغمض عينيه من جديد، لكنه سرعان ما أعاد فتحهما وتطلع إلى وجهها. كان وجه والدته.

«حارس المرآب.. قتل قطتي». قال بصوتٍ مرتجف يشي برعبٍ حقيقي.

«وكيف عرفت؟» سألته بنبرةٍ صارمة محاولةً مداراة خوفها.

«ألقاها في حاوية القمامة. لقد أراني جثتها الممزقة.. كان سعيدًا.. كان يضحك!».

«وماذا فعلت؟» قالت وقد بدأ الكحل يتقاطر من أهدابها.

«قتلته». قال بعد أن رطب حلقه بما ازدرده من لعاب كي يقدر على نطقها من جديد.

كانت تعلم إجابته مسبقًا، فقد أخبرها قبل قليل بأنه قد قتل رجلًا. لكن علمها بأن سبب قتله إنما كان من أجل قطة جعل الدم يتجمد في عروقها.

راحت تعاين بعينيها الطريق إلى الباب بعد أن استعادت الإحساس بأطرافها؛ سيتعين عليها القفز من فوق الكنبة إن أرادت أن تسبقه إليه، أو أن تقلب الطاولة على صدره كي تعيق حركته قبل أن تركض هاربةً. لكنها لم تكن واثقةً بأن جسدها الخائر رعبًا سيكون قادرًا على أيٍّ من ذلك.

عليَّ التصرف بحكمة، فكرت. ستستغل خوفه البادي جليًّا عليه.

«هل رآك أحد؟» سألته كمن يهمس بسر خطير.

هز رأسه نافيًا.

«عظيم.. فلنبقه سرًّا إذن». قالت بنفس النبرة. «انظر إليَّ!» أمرته، فنظر إلى عينيها. كان خائفًا حقًّا. «أَسَمِعتني؟ عليك ألا تخبر أي مخلوق بهذا الأمر». قالت وهي تكزّ بأسنانها على الحروف وكأنها تنهشها، بينما تحدق في عينيه اللتين شعرت بأن بريقهما على وشك الانطفاء. فهزَّ رأسه بالطاعة.

نهضت لاختبار ساقيها، لكن بهدوءٍ شديد كي لا يظن أنها تريد أن تهرب. لم يأتِ بأية حركة. إنه لم يفكر في إمكانية هروبها، وهذا أمر جيد، غير أنها لم تستطع حسم حالة ساقيها إذ أحست برجفةٍ في ركبتيها.

لن تعود إلى الجلوس، فقد لا تقوى على النهوض مرةً أخرى. أسندت مؤخرتها إلى الحائط تحت النافذة كي لا يلاحظ ارتجاف ساقيها، كانت تود لو باستطاعتها أن تدير وجهها إلى النافذة ولو قليلًا لتملأ صدرها ببعض الهواء. أبقت عينيها مصوَّبتين نحوه، دون أن تطرفا، فالمسافة قريبة، وطرفة العين قد تكلفها حياتها.

وقعت عيناها على السكين الموضوعة أمامه على الطاولة. لقد وضعتها بنفسها ليقطِّع كعكته. لقد اختارت أكبر سكين في مطبخه لتسهل عليه الأمر، أمر قتلها!

فكرت في انتشالها من أمامه بحركةٍ خاطفة، لكنها لا تضمن ألا يسبقها إليها، وربما يظنها تريد قتله فيبادر إلى قتلها دون أن تكون لأيٍّ منهما نيةٌ في قتل الآخر.

لو أنها تستطيع فقط قراءة ما يدور الآن في رأسه، فهُموده التام هكذا مثل جثة لا يُطمئن بقدر ما يُخيف.

لكن ما الذي يحمله على التفكير في قتلها، وهي التي لم تمنحه غير المحبة والاهتمام؟ بل ومنحته شفتيها قبل قليل وكامل شبقها، فلماذا يقتلها؟ ألأنها علمت بأمر جريمته؟ لكنها لم تكتشفها بنفسها بل هو من أخبرها بها طواعيةً. كان في وسعه أن يظل محتفظًا بسره محافظًا على رباطة جأشه التي كان عليها منذ دخوله حديقة العمال.

كان سيرضيها أكثر أن يظل مختبئًا وراء قناعه، فما حاجتها إلى رؤية الوجه الحقيقي حين يكون مرعبًا وشنيعًا بهذا الشكل؟

لكنها الآن لم تعد متأكدةً أي الوجوه هو وجهه الحقيقي، المسكين الانطوائي الذي تعثَّر على عتبة منزله من فرط ارتباكه، أم الواثق بنفسه المفعم بالحياة الممتلئ بالأسئلة الشائكة والذي زعزع كل ثوابتها بسؤال واحد، أم القاتل الذي لم يتوانَ عن قتل إنسان من أجل قطة؟ من يكون من كل هؤلاء؟ أهو المحب الذي شعرت بحب كل أهل الأرض مجتمعين في نظراته إليها وهما يعلقان الزينة، أم ذلك الذي انتفض مبتعدًا عنها في نفور بعد أن سألته عن اسم والدته؟

هل هو ذلك الرجل غير الوسيم ذو الشاربين الأسودين كجناحي غراب ببدلته الشتوية البشعة؟ أم أنه الرجل الوسيم حليق الوجه ذو الثياب الأنيقة؟

أحست بأن رأسها على وشك الانفجار. إنها تعيش الآن في كابوس حقيقي لا تبدو له نهاية. تمنت لو أنها الآن في بيتها، مستلقيةً على كنبتها بقميص نومها، وقد تحررت من حمالة صدرها وثقل الأنوثة والحياة، تطالع مسلسلًا من مسلسلاتها المفضلة التي يدّعي مؤلفوها

أنها مسلسلات رومانسية وتتظاهر هي بتصديق ادعائهم كي تحافظ على انخفاض سقف توقعاتها ممن قد يكون شريك حياتها.

إنها الآن تشعر بالإشفاق على نفسها وهي تتذكر كيف أنها اعتقدته شريك حياتها المرجوَّ لحظةَ انصهار شفتيه في شفتيها.

غريبٌ هو أمر الحياة، فعلى الرغم من كوننا أبناءً لها، فإنها لا تتوانى عن التلاعب بنا طوال الوقت، وكأننا لسنا سوى دمًى معلقةٍ بأصابع يديها، معلّقون من أعناقنا فلا ندري متى تكف عن عبثها بأحدنا ومتى تشد الحبل على عنقه، هكذا في طرفة عين، البقية في حياتكم، تقول بقية الدمى بعضها لبعض مواسيةً.

منذ وفاةِ والدتها، وهي لا تكفّ عن تخيّل أشكال موتها المحتملة، فلم تدع ميتةً إلا وتخيلت نفسها عليها، حتى الموت قتلًا كانت قد تخيلته، لكنها تخيلته على يدي مغتصب يحاول خطفها في جنح الليل، وحين تقاومه يقوم بقتلها على قارعة الطريق. وما كانت لتتخيل ولو في أشدّ شطحات خيالها جنوحًا أن تمشي بقدميها إلى القاتل وتسأله المبيت في منزله.

لا يمكنك الانسحاب من اللعبة

«لماذا عدتِ؟» قال بما يشبه غمغمة المستيقظ من منامٍ أزعجه.

لم تفهم ما الذي قاله، لكن شيئًا باردًا سرى في أوصالها وقد أحست أن رجلًا جديدًا غير كل أولئك الذين كانت قد رأتهم فيه يتحدث الآن من خلاله.

نظرت إلى وجهه باحثةً في عينيه عمَّا يطمئنها، كانتا شاخصتين إلى الشموع التسع المطفأة، لكنها لم تتبين ذلك، إذ سرعان ما أشاحت ببصرها عنهما، وقد رأت في احمرارهما عينيَّ شيطان.

«لماذا عدتِ؟» أعاد عليها السؤال بحروف واضحة هذه المرة، وكان صوته الآن لا يشي بالخوف، بل بحقدٍ شديد. لقد كان خوفُهُ هو السلاحَ الوحيد الذي تملِكُهُ في مواجهته، وقد سقط فورًا من بين يديها. وها هي تراهُ يدوس عليه ويطحنه.

التصقت أكثر بالجدار خلفها متراجعةً بظهرها إلى أقصى حدٍّ ممكن حتى أحست أنها على وشك السقوط من النافذة.

لم تفهم معنى سؤاله؛ هي لم تغادر من الأساس، فلماذا يسألها الآن عن سبب عودتها؟ لوّحت بوجهها المسكون بالرعب. لا أفهم شيئًا، أرادت أن تقول.

إنها المرة الأولى التي يرى فيها والدته خائفة. ابتسم. وظل وجهه متجمدًا على ابتسامته المخيفة تلك.

كان في وسعها الآن أن تشعر بارتعاد ركبتيها، وتشنج وجهها، وتجمُّد الدم في عروقها. كان وجهه وهو يبتسم بكل هذا الحقد المتبدي في عينيه الحمراوين، اللتين انطفأ بريقهما

بشكلٍ نهائي، أكثرَ الأشياء رعبًا من بين كل ما رأته في حياتها؛ لقد كانت ترى الآن وجه شيطانٍ حقيقي.

«أعلم سبب رجوعكِ في هذا اليوم تحديدًا». قال محدقًا إلى وجهها وقد زالت ابتسامته. «هل تظنين أني سأسمح لك بهذا؟ هيا تعالي، جربي، مدي يدك، هيا اصفعيني. هل أنتِ خائفة؟ تخافين أن أقتلك؟» هنا، وبغير وعيٍ منها، نظرت إلى السكين أمامه، فنظر إلى حيث نظرت.

شعرت بتوقف قلبها.

«نعم صحيح، إنها كعكة عيد ميلادي. راقبيني جيدًا!» ووقف على قدميه وانحنى فوق الطاولة مستندًا بيديه إليها، وجمع كرة لعابٍ كبيرة في فمه وبصق على الكعكة، فانفجرت المرأة ببكاءٍ هستيري.

كان صوت عويلها حادًّا كالسكاكين يمزق الآذان، وكان له في الرأس وقع انجرار جنزير ثقيل، تمامًا كصراخ والدته.

«اِخرسي!» صرخ، فهمدت مرةً واحدة.

كانت في نشيجها المتقطع تسترق النظر إلى السكين. هو ينوي قتلها، لا شيء الآن ملتبس لديها حول نواياه. تتحسّس بيديها النافذة خلفها. الموتُ بطعنةٍ أم مرتطمةً على الأسفلت؟ يا للحياة حين تعطيك رفاهية اختيار نهايتك!

كانت على وشك الانقضاض على الطاولة لانتشال السكين، لكن يده سبقتها إليها. وقبل أن تنخرط في الصراخ مستغيثةً بجيرانه جذب الكعكة وبدأ بتقطيعها وقد جلس إلى الطاولة من جديد.

«لا تخافي، لن أقتلك». قال بعد أن انتهى من تقطيع القالب. «هل رأيتِ ولدًا يقتل والدته؟» أضاف وهو يضع قطعةً في كل صحن ويضع معها شوكة. «ستأكلين الآن من كعكتي ثم تعودين إلى قبرك». قال وهو يناولها صحنها.

صار صوته الآن رائقًا، في حين عاد إلى عينيه شيء من الصفاء، وزالت عن وجهه تلك الهيئة المرعبة وكأن الشيطان قد غادره.

تقدمت بحذر وتناولت الصحن من يده بعد تردد.

«ألن تجلسي؟» قال، فجلست على الفور.

كانت يدها ترتجف بشدة فوضعت صحنها على الطاولة.

اقتطع بالشوكة لقمةً من صحنه ووضعها في فمه، ثم تناول الثانية، بينما اكتفت هي بمراقبته وهو يأكل من الكعكة التي بصق قُبيل لحظاتٍ عليها، وقد بدأت تُغالب رغبةً مُلحّة في التقيؤ.

«ماما!» قال. فارتفع قلبها وارتطم. «لماذا لا تأكلين؟».

«سآخذها معي وآكلها هناك». قالت بعد أن فكرت قليلًا.

حين لم تجد منه اعتراضًا، حملت صحنها ونهضت.

«هل يسمحون لكم بإدخال الطعام إلى القبور؟» سألها، فارتعش الصحن في يدها.

اِرجع ثلاث خطواتٍ إلى الوراء

ابتلعت ريقها وقالت بصوتٍ بالكاد تجاوز شفتيها: «أجل، يسمحون بذلك». وأرادت أن تتجاوزه لتتابع نحو الباب.

«الملائكة؟» سألها وهو شاخصٌ عينيه إلى كرسيها الفارغ، فتوقفت متطلعةً إلى الباب. لقد بدا لها قريبًا جدًّا، على بُعد بضع خطوات، وبعيدًا جدًّا، يستحيل عليها بلوغه.

«لم أفهم». قالت.

«الملائكة.. هل الملائكة هم من يسمحون بذلك؟».

«أجل.. الملائكة». ألقتْ إليه بجوابها آملةً أن يلتهي به قليلًا ريثما تصل إلى الباب.

«وهل رأيتِ الله؟».

«رأيته». قالت، وقد أحست أنها الإجابة التي يودها.

«وهل تحدثتِ إليه؟».

«أجل». قالت.

صمت قليلًا، وكأن سؤاله التالي كان أثقل من أن يحمله لسانه، أو يقوى صدره على دفعه خارج حلقه.

«وهل أخبرتِه بكل ما فعلتِه بي؟» قال أخيرًا، وبدأ الدمع بالانسياب على وجنتيه.

هي تعلم الآن أنه إنما يخاطب والدته التي يتخيلها فيها، لكنها لا تعلم ما الذي فعلته به تلك الأم، حتى تسببت له في كل هذا العذاب.

«مبروك، إنه صبيّ!» قالت الممرضة لوالدته في غرفة الولادة وناولتها إياه قائلةً: «انظري ما أجمله!» لكنه لم يلبث في يديها سوى بضع ثوانٍ قبل أن تعيده إلى الممرضة قائلةً: «لا أستطيع. أنا متعبة». لقد أحست بالاشمئزاز منه كما يشعر المرء بالتقزز من قيئه. كانت تكتم أنفاسها في أحيان كثيرة بينما ترضعه كي لا تشم رائحته، وكثيرًا ما كانت تتركه يجهش في بكائه حتى يكاد أن يُغشى عليه قبل أن تلقمه حلمتها. لم تستطع أن تشعر بأي عاطفةٍ تجاهه. وكانت تعتقد في قرارة نفسها، حين ترى تلك المشاعر الجياشة ممن حولها من الأمهات تجاه أولادهن، أن ذلك كله ليس سوى محض كذبٍ وتمثيلٍ وادعاء، يقمن به للتجمل في عيون الناس وأزواجهن.

كان يكبر كل يوم أمام عينيها ويكبر جفاؤها معه وكأنه توأمه. إلى أن تحول هذا الجفاء إلى قسوةٍ في المشاعر، ثم إلى قسوةٍ في المعاملة من إهانةٍ وشتمٍ وضرب، وصولًا إلى التعذيب والتنكيل.

«ألم تخبريه؟» أعاد السؤال بصوتٍ هدّهُ التعب وهو سارحٌ في فراغ النافذة من خلف ستائر دمعه. بدت له تلك القطعة السوداء من الليل داخل إطار النافذة حجرةً مظلمة، وبدا له قرص القمر فُرجةً إلى عالمٍ مضيء، حيث الله موجودٌ هناك، مستوٍ على عرشه.

سأذهب إليه وأخبره بنفسي. قال في قرارة نفسه، ونهض، فابتعدت عنه وقد أفزعها نهوضه المفاجئ. التفَّ حول الطاولة متعجلًا، فأدركت من فورها ماهو مُقدم على فعله، فهبَّت وراءه وأمسكته بخصره في اللحظة التي وضع فيها إحدى قدميه على عتبة النافذة.

«ما الذي تفعله أيها المجنون؟» راحت تصرخ باكيةً بينما تصارع رغبته المتأججة في إنهاء حياته، إلى أن استطاعت جره إلى الوراء، فاصطدمت بالطاولة وراءها وانقلبت بهما.

حاول بشراسةٍ أن يخلص نفسه من تحت جسدها ليكرر المحاولة، فاستدارت نحوه وجثت بركبتيها على صدره، كما فعلت والدته في حادثة المكواة، وصرخت: «اِهدأ أيها الحيوان.. اِهدأ!» ورفعت كفها لصفعه فأغمض عينيه وقد سكن تمامًا.

أسدلت يدها وانخرطت في البكاء مرتميةً على صدره، ظلت هكذا إلى أن هدأت تمامًا. نهضت عنه فوجدته غارقًا في النوم كالطفل الذي وجد حضنًا بعدما أتعبه البكاء.

تركته على حاله وسارعت إلى التخلص من آثار ذلك الكابوس الذي تودّ لو أنها تنساه إلى الأبد، فعدّلت الطاولة والكرسيين، ونظفت الأرض من فوضى الكعكة وحطام الأطباق. ثم جلست خائرة القوى عند رأسه، وكأنها عائدة من حرب.

تناهى إلى أذنيها صوتٌ دخيل على هدأة البيت.

«سعيد، هل تسمع هذا الصوت؟» همست.

أصاخت سمعها جيدًا.

«ألديك قطةٌ أخرى؟» سألته، لكنه ظل نائمًا.

قامت من مكانها جانبه وراحت تذرع أركان الصالة. فتّشت تحت طاولة الشاي، والكنبتين، مُرهفةً أذنيها، إلى أن اهتدت إلى مصدر الصّوت. إنه قادم من وراء الباب.

توجهت إلى الباب، وألصقت أذنها مصغيةً، نعم، إنها وراءه!

فتحته بحذر فانسلت من بين قدميها قطة بيضاء بلون الحليب وركضت إلى السيد سعيد الذي كان مستغرقًا في نومه هناك على الأرض، وأخذت تموء فوق رأسه إلى أن أيقظته.

خيل إليه بادئ الأمر أنه في حلم. فتح عينيه، مد يده إلى رأسها ومسح عليه، فراحت تحك جسدها بذراعه وتلفُّ ذيلها حوله. رأى قدميّ السيدة ميم وقد اقتربت منهما، رفع عينيه،

رأى وجهها الذي لا يزال باديًا عليه أثر البكاء والتعب، فأدرك أن هذا حقيقي.

«أهذه هي قطتك؟» سألته غير مصدقة ما تراه.

أومأ برأسه بينما دموعه تنهمر من عينيه: «نعم، هذه هي قطتي».

«ولكن كيف؟» سألته، فهز رأسه لا يفهم شيئًا مثلها.

«كيف قتلت الحارس؟» سألته بعد تفكيرٍ طويل.

أخافه السؤال فظل صامتًا.

«أخبرني، كيف قتلته؟».

«بصندوق خشبي». قال بصوتٍ متردد.

«ضربتَه على رأسه؟» سألته محدقةً في عينيه، فهزَّ رأسه بالنفي.

«تكلم!» صرخت.

«هشمت به وجهه». قال بصوتٍ مرتجف.

غثت نفسها لمجرد سماع تلك العبارة، إذ تراءت لها صورة وجه الحارس الممزق وقد تفجرت منه الدماء.

ظلت تطالعه في ذهول وحيرة. كانت تحاول إقناع مخيلتها بأن رجلًا مثله يمكن أن يقتل إنسانًا بهذه الطريقة الوحشية.

لكن أين آثار ذلك الدم على يديه وثيابه؟ ومض السؤال في رأسها.

«ألهذا ثنيت الأكمام؟ لتخفي دمه؟» سألته باندفاع، فأشار برأسه معترفًا.

هرعت من فورها إلى غرفته. كان القميص على طرف السرير، أخذته في يديها بينما تتصاعد دقات قلبها وهي تمني نفسها بأن يكون ما خمّنته صحيحاً.

فردت الكُمَّيْن بأصابع مضطربة، لا أثر فيهما لقطرة دمٍ واحدة!

أُخرج من السجن دون مقابل

«أما أنا فأراه غايةً في الوسامة» همست إحدى زميلاته لرفيقتها، بينما تسترقان النظر إليه في مدرج الجامعة.

«ليس إلى هذه الدرجة! لكن هذا ليس موضوعنا الآن، فنفوري منه ليس بسبب قلة وسامته، بل بسب غرابة تصرفاته. ألا تذكرين جبيرته المزيفة التي أخبرتك عنها؟».

«جبيرة مزيفة؟ لا. لم تخبريني».

«بلى أخبرتك! حين دخل علينا أنا وطارق بينما نتبادل القبل وراء المسرح، وكان لحظتها يسير بشكل طبيعي، ثم بعد أن هرع إليه طارق وراح يرجوه بألا يخبر أحدًا بما رآه، غادرنا وهو يعرج، ثم حضر إلى الجامعة في اليوم التالي وقد وضع جبيرةً مزيفة على ساقه!».

وغرقت الشابتان في الضحك متلفتتين نحوه كل قليل.

* * *

كانت السيدة سميرة منكبةً على طباعة التقرير السنوي حين اقتحم السيد سعيد مكتبها دون أن يطرق الباب. نظرت إليه فزعةً وسألته: «من أنت؟» لكنه لم يجبها. صمت قليلًا ثم قال متطلعًا إلى الآلة الكاتبة أمامها: «أريد دخول الحمّام». نظرت إليه بتعجب وقالت بعد أن زفرت: «ستجده في آخر الممر بعد غرفة ال...». هنا دخل الفرّاش عليها بفنجان قهوتها، فتناولته منه وقالت: «رافق الأستاذ لو سمحت ودلّه على الحمّام».

* * *

حين كان السيد سعيد جالسًا في حديقة العمال فوق السور الحجري الخفيض المحيط بالنافورة، تقدم إليه رجل وزوجته.

«هلا سمحت بتصويرنا أيها السيد؟» قال له الرجل بينما يمد إليه آلة التصوير.

تناولها السيد سعيد، قلّبها بين يديه بارتباك جاهلًا كيف تعمل.

«قف هناك لو سمحت، ونحن سنقف هنا أمام النافورة». قال الرجل، فوقف السيد سعيد حيث أشار الرجل.

عاد إلى تقليب آلة التصوير بين يديه، وضعها أمام عينه وظل يحدق بهما من خلال العدسة، دون أن يعرف ما عليه فعله بعد ذلك.

«هل انتهيت؟» قال الرجل بضيق، وذهب إليه تاركًا زوجته وراءه.

«هل صورتنا؟» سأله الرجل بينما يستعيد آلة التصوير منه، فهز السيد سعيد رأسه بالنفي.

«ألا تعرف كيف تعمل؟» قال الرجل باستغراب. «حسنٌ لا عليك، كل ما عليك فعله هو الضغط على هذا الزر». ثم أعادها إليه ووقف من جديد بجانب زوجته وابتسما لآلة التصوير ابتسامةً عريضة. وحين انتهى من تصويرهما شكراه وانصرفا.

* * *

كان الصبي ذو الثلاثة عشر عامًا جالسًا على كرسي الحلاقة المجاور حين عرض الحلاق على السيد سعيد أن يغسل له شعره بعد أن انتهى من قصه، فهز رأسه موافقًا دونما إبطاء، فساقه الحلاق إلى المغسلة، دعك شعره بالشامبو وأغرقه بالماء الدافئ ثم ألقى إليه المنشفة وسبقه إلى الكرسي.

نهض السيد سعيد ومشى إلى الكرسي بينما يفرك عينيه بالمنشفة محاولًا التخلص من أثر الشامبو الحارق، وحين أحس أنه بلغ كرسيه ألقى بجسده الضئيل فوقه ليصرخ الولد مفزوعًا من تحت مؤخرته القاسية. وهنا نهض شابٌّ من مقاعد الانتظار بعد أن وضع المجلة من يده. ربّت على رأس شقيقه الصغير وقال له: «لا بأس، لم يقصد العم فعل ذلك». وابتسم للسيد سعيد وعاد إلى مقعده وتناول المجلة.

* * *

كان السيد سعيد واقفًا في طابور المخبز الآلي، حين أوقع الرجل الواقف وراءه قطعة نقد معدنية من فئة العشرة قروش، فداس عليها السيد سعيد دون أن ينتبه.

«لو سمحت أيها السيد، لقد دستَ على نقودي». قال الرجل بعد أن نقر على كتفه. رفع السيد سعيد قدمه عنها من دون أن ينطق، فانحنى الرجل والتقطها عن الأرض، وهز رأسه مبتسمًا للسيد سعيد.

* * *

حين بلغ السيد سعيد مسكن قطته داخل المرآب لم يجدها هناك، فأخذ يبسبس بصوتٍ خافت في البداية مخافة أن يسمعه الحارس رغم بعده. لكن القلق بدأ يتسلل إلى قلبه حين لم يعثر عليها رغم تمشيطه لكامل الرصيف الذي تقطنه، فأخذ يرفع صوت بسبسته إلى أن غدت كافيةً لاستدعاء كل قطط المدينة، دون أن تظهر قطته.

لم ينتبه إلى بلوغه الرصيف المحاذي لغرفة الحارس إلا حين رأى الحارس يحدجه من خلف زجاج غرفته بنظرةٍ متشككة.

تمسمر السيد سعيد في مكانه باستسلام تام، منتظرًا مصيره المشؤوم الذي بدا له محتمًا.

«سيد سعيد! ما الذي تفعله هنا؟» سأله باستغراب إذ لم يكن هذا موعد حضوره اليومي لإطعام قطته.

«أبحث عن قطتي». أجابه بصوتٍ مرتجف، وأغمض عينيه استعدادًا للصفعة التي ستكون مدوخةً بلا شك.

«ألم تجدها في الداخل؟» قال الحارس متعجبًا، ثم أضاف: «لقد رأيت أحد العمال يقدم إليها الطعام قبل ساعة». ظل السيد سعيد صامتًا من دون أن يبدي أي تجاوب مع كلام الرجل، وكأنه لا يسمعه. «ما رأيك في أن تلقي نظرة على تلك الحاوية؟ إنها مخصصة لبقايا خيوط الصوف، والقطط كما تعلم تحب اللعب بالصوف». قال الحارس أخيرًا في محاولةٍ مهذبة منه لحمله على مغادرة المرآب، وحين لم يجد أي استجابةٍ منه، قال بتحرّج: «أرجو المعذرة يا سيد سعيد، عليَّ أن أغلق البوابة الآن، إنها القوانين كما تعلم»، فاستجاب له وغادر المرآب دون أن يشكره أو حتى يودعه بكلمةٍ واحدة.

هز الحارس رأسه متأففًا وأغلق البوابة وعاد إلى حجرته داخل المرآب.

عرج السيد سعيد على ساقه إلى حيث أشار الحارس إلى أن بلغ الحاوية. كانت عاليةً بعض الشيء قياسًا بقصر قامته، ما اضطره إلى الاستعانة بصندوق وجده خلفها فوقف فوقه وأطل إلى داخل الحاوية. كانت ممتلئة بربطات من بقايا الصوف، لكن قطته لم تكن هناك.

ظل واقفًا هكذا شاخصًا عينيه إلى ربطات الصوف، ثم ألقى حافظة الطعام فوقها وغادر المجمع بينما يثني أكمام قميصه.

توجّه إلى خانة البداية

حين رن جرس المنبه في غرفة السيد سعيد عند تمام السادسة من صباح اليوم التالي، كانت السيدة ميم جالسةً على أحد المقاعد الخشبية على جسر النهوض، بانتظار مرور الوقت لتكمل طريقها إلى معمل الألبان، حيث ستجري مقابلة العمل.

كانت شمس الشروق قد منحت النهر ألقًا ذهبيًّا دافئًا، فلم يبدُ لها الآن ظهر مرآةٍ أعمى، بل بدا أعمقَ ما يمكن أن يُدرك.

فتح السيد سعيد عينيه البراقتين بعد أن أطفأ المنبه، ونهض عن فراشه بتثاقل فشعر بطنين شديد في أذنه اليسرى، تذكر على إثره ما وقع له صباح الأمس:

كان جالسًا في موقف الحافلات أمام مجمع الصناعة ببدلته الشتوية السميكة وربطة عنقه الصفراء، حين توجس أن مكروهًا على وشك الحدوث، فأخذ يتململ في مقعده بينما يتصبب عرقًا، وراح يشاغل نفسه عن هواجسها باللهو بربطة عنقه الفاقعة إلى أن يحين موعد بدء العمل. وظل على هذه الحال إلى أن رأى في إطراقته حذاءين هائلين يقتحمان نطاق رؤيته على بلاط الرصيف، فلم يكد يغمض عينيه حتى تلقى صفعةً مدويةً على خده من يد العامل الهائلة أفقدته السمع في أذنه اليسرى لبضع ثوانٍ.

في صالة المنزل، بعد أن تناول طعام الإفطار مع قطته في المطبخ، جلس إلى طاولة المونوبولي محدقًا في ذهول إلى صندوق الطرد البريدي الذي لا يعلم كيف دخل منزله.

بينما في الطابق الثالث، كان الرجل الستيني صاحب الطرد مستلقيًا على سريره بجانب زوجته النائمة، يحدق إلى السقف بعينين قلقتين.

لا بد أن مكروهًا أصابه! فكَّر بينما يفتل بإصبعيه شاربه الأبيض، وكان يعني الشخص المجهول الذي اعتاد أن يرسل إليه في مثل يوم أمس من كل شهر صندوقًا خشبيًّا مقفلًا بشرائط بلاستيكية، رُصَّت بداخله رزمات نقود المونوبولي، مرفقًا معها ورقة بكشف حساب شهري بمدخول المنازل والفنادق البلاستيكية وما تم دفعه من ضرائب إلى بنك المونوبولي. وهو أمر على غرابته، كان يجد فيه تسليةً شهرية طريفة، وقيمةً لحياته كان قد فقدها منذ أن تقاعد عن العمل، وإن كانت قيمةً زائفة.

التقط السيد سعيد صندوق الطرد البريدي عن الطاولة وركض به إلى الطابق الأرضي وأعاده إلى خزانة الطرود وأقفلها ودسّ ورقة الرمز السري في صندوق بريد جاره العجوز، الذي كان يراه على هيئة «مستر مونوبولي» ذي الشاربين الأبيضين الطويلين، بسترته السوداء وقميصه الأبيض والبابيون الأحمر وقبعته الطويلة السوداء، وقد حمل في يده العكاز الخشبي الذي هوى به ذات يوم على رأس السيد سعيد وهو يسأله: «أين حصتي الشهرية مما تكسبه في مدينتي؟».

في تلك الأثناء كانت السيدة ميم لا تزال جالسةً على جسر النهوض قبالة النهر، مفكرةً في السيد سعيد بكثير من الإشفاق وقليل مما ظنته حبًّا ليلة أمس، دون أن تغيب عن بالها صورته فجر اليوم حين كان غارقًا في نومه كطفلٍ هانئ، يتنفس من فمه المفتوح بمقدار حلمة أم.

1. الغلاف
2. مونوبولي
3. أغمض عينيك؛ ستُصفع الآن!
4. إنه عيد ميلادك!
5. توجّه إلى مصنع النسيج
6. لديك زيارة عائلية
7. صندوق المجتمع
8. عليك أن تدفع ضرائبك المتأخرة
9. رقعة المونوبولي
10. يمكنك تأجيل بعض الالتزامات
11. الفندق الأحمر
12. يمكنك الحصول على شريك
13. توجّه إلى خانة سوق النهضة
14. لقد تلقيتَ هديةً بمناسبة عيد ميلادك
15. تقدّم خطوتين إلى الأمام
16. اذهب للتنزه في حديقة العمال
17. توجّه إلى المرآب
18. أكمِلِ اللعبة كلاعبٍ جديد
19. حجر النرد
20. رموز اللعب
21. احتفل بعيد ميلادك!
22. اذهب إلى السجن
23. لا يمكنك الانسحاب من اللعبة
24. إرجع ثلاث خطواتٍ إلى الوراء

25. أُخرج من السجن دون مقابل
26. توجّه إلى خانة البداية